قصص القرآن

للأطفال

محمد الدسوقي

طبعة جديدة 2015

مكتبة ابن سينا

اسم الكتاب: قصص القرآن للأطفال
اسم المؤلف: محمد الدسوقي
عدد الصفحات: ٩٦ صفحة
رقم الإيداع: ١٩٥٤٣ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولي: 977-271-604-6

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم
الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالمملكة العربية السعودية من
مكتبة الساعي للنشر والتوزيع
ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ ـ هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ ـ ٤٣٥١٩٦٦ ـ ٤٣٥٩٠٦٦
فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧
E-mail: alsaay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة – القاهرة
تليفون: ٤٤٨٩٠١٣ فاكس: ٤٤٨٩٠٥٩٩

مكتبة ابن سينا

للنشر والتوزيع والتصدير

نافذتك على الفكر العربي والعالمي من خلال ما تقدمه لك من روائع الفكر العالمي والكتب العلمية والأدبية والطبية ونوادر التراث واللغات الحية. شعارنا: قدم الجديد..
وبسعر رخيص

يشرف عليها ويديرها
مهندس
مصطفى عاشور

٧٦ شارع محمد فريد ـ النزهة ـ مصر الجديدة ـ القاهرة
تليفون: ٢٦٢٧٩٨٦٢ - ٢٦٣٥٢٢٨٢ فاكس: ٢٦٣٨٠٤٨٢
Web site: www.ibnsina-eg.com
E-mail : info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل أو اقتباس أي جزء من الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة ميكانيكية أو إليكترونية بدون إذن كتابي سابق من الناشر.

مقدِّمة

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين!

وبعد:

فها هى ذي مختارات من قصص القرآن تنوعت أهدافها ومراميها، وقع اختيارنا عليها لأبنائنا وبناتنا في مرحلة الطفولة، حرصا منا على تزويدهم بالقيم الرفيعة وتبصيرًا بما قد يعوق مسيرتهم على الطريق فمن لا يعرف الشر يقع فيه!

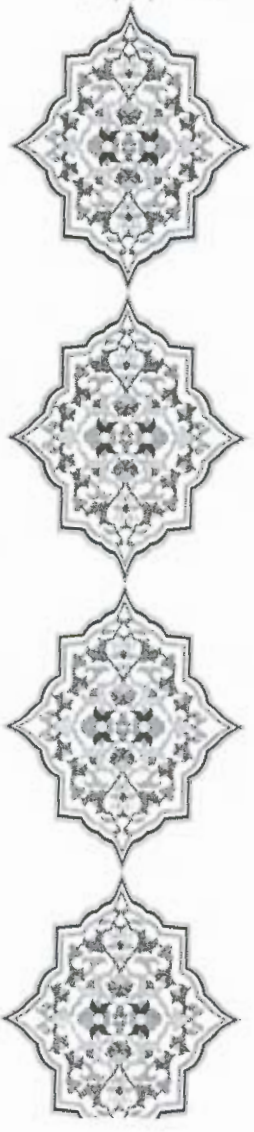

وواجب الكُتَّاب والمربين أن يأتمروا بما أمر الله به نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦] وقوله ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

وها نحن أولاء نقص عليكم ما فيه نفع لكم، وتقوية لإيمانكم، وحماية لخطاكم،

وبناء لشخصيتكم، وتربية لوجدانكم وغرس للقيم الفاضلة فيكم!

هذا ومن خصائص«القرآن الكريم» أنه لا يُعنى بالأشخاص والزمان والمكان في قصصه مثلما يُعنى بانتزاع العبرة منها، والاستفادة بها فيما سيقت له.

ولهذا كان اهتمامنا بتسجيل الحدث، والاستفادة منه، دون الجري وراء الأسماء والأمكنة والأزمنة اقتداء بالقرآن الكريم ، حيث لم يتعرض لها!

بقى أن ندعو لكم بالتوفيق والانتفاع بما نقدمه لكم بين حين وآخر،والله الموفق...

المؤلف

قابيل وهابيل.. وبوادر العداء بين الإخوة!

• من هنا نبدأ

في البدء كان أبونا آدم، وأمنا حواء...

ومن آدم وحواء كان قابيلُ وهابيلُ ، ولكل منهما أخت وُلدت معه وكبرت حتى سن النُّضج!

قابيل يُحب الأرض ويزرعها فتُعطيه، ويجني ثمار عمله وجهده.

وهابيل يرعى الغنم والأنعام، ويعود في المساء حين تهدأ لتنام.

• إبليس يوقع بين الأخوين!

ومرت الأيام وكأنها أحلام!

لكن إبليسَ اللعين كان يدبّر لهما في الخفاء ليوقعَ بينهما ويبذرَ بذورَ العداوة بين الأخ وأخيه. وأخذ ينتهز الفرصة التي يُمارس فيها مهمته..

كان المتَّبعُ آنذاك أن يتزوج كلٌّ منهما توءم أخيه لا توءمته!

كانت توءمةُ قابيلَ رائعةَ الجمال!

أما توءمةُ هابيلَ فلم تكن في مستواها بحالٍ من الأحوال!

تقدم هابيلُ ليتزوج أخت قابيلَ على سُنةِ اللهِ ونبيِّه آدم!

ولكن قابيلَ غضبَ وثارَ! وقال :هى أختي.. ولدت معى، فأنا أولى بها وأحقُّ منك... وعندك أختك!

وتدخل الشيطان بينهما في الوقت المناسبِ ليوقع بين الأخ وأخيه!

• موقف آدم من ولديه !

عرف الوالد آدم عليه السلام ما دار بين الأخ وأخيه فأراد أن يعالج الأمر بحكمةٍ ورويّة!

تُرى ماذا فعل؟

اقترح عليهما أن يقدمَ كلٌّ منهما قربانا إلى الله، فمن قُبل قربانُه كان أحقَّ بالفتاة!

هابيلُ صاحبُ أغنامٍ وأنعامٍ فقدم أحسن كبشٍ عنده.

وقابيل صاحب زرعٍ وثمر فاكتفى بتقديم حُزمة من زرعه!

وانتظر كل منهما قبولَ قُربانه!

كانت تنزل نارٌ فتأكل ذلك القربان علامة للقبول!

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

وكان هابيلُ تقيًا صادق الإيمان! متوكلاً على الله!

والشيطان ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون!

أما قابيلُ فقد كان مُحبًا لنفسه، ولم يكن قويّ الإيمان ... فوسوس له الشيطان حينما قُبل قربانُ أخيه ولم يُقبل قربانُه!

• يا ويل قابيل لم يُقبل قربانه !!

دارت الدنيا به، وضاقت في عينه وغلت الدماء في عروقه، وامتلأ قلبه حقدًا على أخيه وبُغضًا له!

وأقبل إبليسُ عليه يعرضُ خدماته ومساعداته وضحك عليه وأغواه ورسم له كيف يتخلصُ من أخيه في غياب أبيه ليخلو الجوُّ له وينعم بزواج من يُحبها وهى أخته!

• حوار بين الأخوين:

وجرى بينه وبين أخيه حوار، فإذا به يقول له مهدِّدًا: «لأقتُلَنّك».

وإذا بأخيه العاقل المسالم يقول له:

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:٢٨].

وكان لهذه الكلمات العاقلة المتزنة أثرها في نفسه.. فاتهمها.. وتذكر غياب أبيه.. والأمانة الموضوعة في رقبته.. وما يترتبُ على قتله من غضب الله عليه، وحُزن أبويه مما سوف يحدث.. وعرف أن الجريمة لا تُفيد!

اطمأن أخوه إليه، وزاد أملُه في أن تعود المياهُ إلى مجاريها ويتغلبا على الشيطان الذي أخرج أبويهما من الجنة، وأخذ على نفسه عهدًا أن يوسوس لأبناء آدم وستظل عداوته إلى يوم القيامة!

• إبليس للأخوين بالمرصاد!

ولكن إبليس كان له بالمرصاد فأقبل عليه يوسوسُ له قائلاً: هيا قبل فوات الأوان!.. والحل هو القتل!

إن لم تُقدم على قتلِ أخيك فسوف تُضيعُ الفرصةَ من يدك إلى الأبد!

وأعماه الشيطانُ وأثّر على عقله... فاندفع إليه وهو نائم بجوار غنمه وألقى عليه صخرة حطمت رأسه فلفظ أنفاسه وهو يقول: إلى الرفيق الأعلى! أهكذا يضحك عليك الشيطان؟!

نظر قابيلُ يبحث عن شيطانه الذي أضلّه وأغواه فلم يجده وأحسَّ أن كلَّ ما حوله يقول له:

لقد مات هابيلُ شهيدًا يا قابيل!

لقد خُنت الأمانة التي تحملتها، وأصبحت ظلومًا جهولاً!! إن المؤمن بُنيان الرَّب من هدَمَه هدمَه الله!

• لحظات الندم!

حمل أخاه على كتفه وراح يبحثُ له عن مكان يُواريه فيه!

ودموعه تسيل على خديه من الندم والحسرة!

• غراب يعلمه كيف يواري سوءة أخيه!!

وسارعت جماعة الغربان لكي تقدم خبرتها وتبذل معونتها للإنسان!

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة:٣١].

وأدت الغربان دورها بمهارة، فإذا هو في حيرته وندمه يقول ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١].

• ولكن هل ينفع الندم؟

افتح مصحفك واقرأ الآيات من ٢٧ إلى ٣١ من سورة المائدة وفكر كثيرًا قبل أن تقدم على الشر فالجريمة لا تفيد ومن استعجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه!

أصحاب السبت.. وما حلّ بهم من عذاب بئيس

المسلمون لهم يوم في الأسبوع يجعلونه عيدًا لهم هو يوم الجمعة، إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فإنهم يسعون إلى ذكر الله ويذرون البيع وكل ما يشغلهم، فإذا صلوا انتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله وذكروا الله كثيرًا. واليهود يعظمون السبت ولا يزاولون فيه عملاً يشغلهم عن عبادة ربهم.

أما النصارى فهم يعظمون الأحد ويستمعون فيه إلى العظات، وهكذا نجد لكل دين من الأديان الثلاثة السماوية يومًا يخصونه بمزيد من العبادة والتقديس!

ومنذ سيدنا موسى عليه السلام وبنو إسرائيل يقدسون يوم السبت ، وله عندهم منزلة خاصة.

وفي إحدى القرى على شاطئ البحر كان يسكن قوم من سلالة بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام..

هذه القرية على ساحل البحر تسمى«أَيلَة» وبجانبها حجران أبيضان تخرج الحيتان إليهما ليلة السبت ويومه، حيث تأمن أن تصاد، فالقوم لا يزاولون عملاً من أعمال دنياهم من صيد، أو متاجرة ، أو صناعة!

وفي ذلك يقول القرآن الكريم﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٣].

وكانت تجربة قاسية!

الحيتان تتكاثر وتتزاحم في ظل الأمن والأمان! فإذا جاءت ليلة الأحد تسربت الحيتان إلى البحر فانبعثت إلى باطنه فتعذر على القوم اصطيادها حين تصبح حلاً لهم!

وكان في القرية مؤمنون وفساق.. صالحون وطالحون. قانعون وطامعون، فتحركت دواعي الطمع وثارت عوامل الجشع في نفوس الفساق من أهل هذه القرية!

وغفلوا عن تعاليم أنبيائهم ، ونسوا حظًا مما ذُكروا به فتشاوروا فيما بينهم، وتبادلوا زمام الرأي وقال بعضهم لبعض:

ما بالنا نترك هذه الحيتان في اليوم الذي تتزاحم فيه وتكثر وتزيد بينما نحاول صيدها بمشقة وجهد حين تبعد عنا ، إن أمرنا لعجيب!

الرأي الصواب أن نُقبل عليها يوم السبت.. يوم تكاثرها نأخذ منها ما نريد!

وأقبلوا عليها غير عابئين بتعاليم دينهم وأوامر نبيهم فاصطادوا منها بلا تعب ما شاءوا وما اشتهوا من مطبوخ ومشوي ومقلي وملئوا منها البطون!

وعلم المتقون بما فعله الفساق المستهترون فخرجوا إليهم ووعظوهم وحذروهم عاقبة أمرهم فلم يزدهم ذلك إلا إصرارًا على رأيهم وإمعانًا في ضلالهم!

وتأزم الموقف وثار المؤمنون وحاصروا القرية بالسلاح حيث لم تنفع

الكلمة مع هؤلاء الخارجين الآثمين الفاسقين! وثار الجدل بينهم، وقال الفاسقون:

إن القرية لنا ولكم ولا حق لكم في منعنا والانفراد بها دوننا فإن كان ولابد فلنقسمها ولنبن بيننا وبينكم حائطًا حتى يعيش كل منا كما يحب!

انفردت كل طائفة، وشغل الفساق بصيدهم وحفروا بحيرات تصل البحر بقريتهم فإذا كانت ليلة السبت سارت الحيتان فيها إلى أبواب دورهم فإذا غربت شمس السبت وهمت الحيتان بالعودة حجزوها بسدود أقاموها، فلا تملك الحيتان إلى العودة سبيلا!

ومع هذا الفسق، والخروج على تعاليم الدين ظل المؤمنون يزجرونهم، ويخوفونهم عذاب الله!

فلم يزدهم ذلك إلا تماديًا في ضلالهم وإثمهم!

وعندئذ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤].

فتركوهم بعد أن يئسوا من صلاح حالهم، أما نبي الله داود فقد ضاق بهم ودعا ربه أن ينزل عليهم عذابه وأن تحل بهم لعنته فزلزلت الأرض زلزالها، وفزع المؤمنون وخرجوا من بيوتهم ولكن الله أنجاهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ (١) بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

وهذه نهاية كل الخارجين على تعاليم الدين وأوامر رب العالمين من المعتدين الظالمين.

---

(١) بئيس:شديد

أصحابُ الكهف.. والرقيم وتضحيتهم في سبيل الحق والواجب!

• سورة الكهف وما فيها من قصص

في القرآن الكريم سورةٌ اسمُها «سورةُ الكهف».. وتقع في وسطه، ويحرصُ المسلمون على الإنصات إلى قارئها حين تُتلى وبخاصةٍ في يوم الجمعة لما فيها من العظات والعبر!

وقصة «أصحاب الكهف والرقيم» إحدى قصص ثلاث تناولتها «سورة الكهف» وهى قصة البطولة الإيمانية والتضحية في سبيل الحق والواجب ولهذا وصفهم القرآن الكريم بقوله ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[الكهف:١٣].

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح!

وأما الثانية : فهى قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح وهى قصة التواضع واحتمال المشاق في سبيل العلم والمعرفة وقد جاء فيها على لسان موسى عليه السلام للعبد الصالح ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[الكهف:٦٦].

أما القصة الثالثة: فهى قصة العدل والنجدة والنموذج الصالح لمن مكن الله له في الأرض، وبها نموذج للقانون الصالح... قانون الجزاء العادل لا الكيل بمكيالين.. قانون العولمة الحقة لا العولمة الزائفة! فتعال نتابع ما قصه الله علينا في سورة الكهف.

• المراد بالكهف والرقيم

والكهف: الفجوة في الصخر ، وإن شئت فقل المغارة... أما الرقيم فهو الكتاب الذي يحمل أسماء أصحاب الكهف، أو الحجر.

أما من هم ؟ وما عددهم؟ وكم لبثوا في كهفهم؟ فتعال إلى هذه الآيات البينات...

لقد قص القرآن علينا قصتهم في إجمال مشوِّق ثم أخذ في البيان والتفصيل بعد أن ذكر خُلاصة القصة أولاً هكذا...

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[الكهف٩:١١].

فهم فتية آمنوا بربهم وفروا بدينهم!

لا نعلم عددهم ... ناموا سنين طويلة لا علم لنا بعددها. وقد بُعثوا من رقدتهم. فكانوا للناس عجبا!

• تفصيل بعد الإجمال

وبعد هذا التلخيص المشوّقِ يبدأ تفصيل ما أجمل مبينا أن ما يقوله هو حقُّ اليقين، وهو القولُ الفصل فيما ورد على ألسنة الناس وفيما اختلفوا فيه من عددهم ومدة نومهم!

إنهم فتية أشداء في أجسامهم .. أشداء في إيمانهم... أشداء في استنكار ما عليه قومهم من كفر وإلحاد!

وشتان بين الاتجاهين!

الفتية يؤمنون بالله الخالق المنعم!!

وقومهم اتخذوا من دون الله آلهة يقدسونها ويعبدونها!!

لم يبق أمام هؤلاء الفتية الأبرار الأطهار إلا الفرار بالعقيدة ! الفرار بدينهم.ولكن لماذا الفرار؟ وإلى أين؟

إنهم لا يستطيعون أن يُجاهروا بعقيدتهم الصحيحة بين قومهم فليسوا رسلاً!

ولا يستطيعون مداراة قومهم وإخفاء عقيدتهم والعيش بينهم خوفًا من أن ينكشف أمرهم وفي ذلك هلاكُهم!

لا حلّ إلا أن يأوُوا إلى ذلك «الكهف» المظلم الضيق فرحمة الله واسعة.. والله نور السموات والأرض فلتسعهم رحمتهُ وليغمرهم نوره!

ولجأ الفتيةُ إلى الكهف فاتسع لهم وأضاء بهم، فمن كان مع الله كان الله معه لا يخذلهُ ولا يُضيِّعه ولا ينساه!

• نومة طالت !

وفي الكهف استراحوا وهدأت نفوسهم وأمنوا فتسرب النعاسُ إلى أجفانهم فناموا!!

كل شيء في الكون كان يرعاهم في نومهم ويوفر لهم جوًا هادئًا!

حتى الشمس حين تطلع تبتعد عنهم قليلاً حتى لا تؤذيهم حرارتُها، وحين تغرُب تُجاوزُهم إلى الشمال.

تحسبهم أيقاظًا وهم رقود!

وكلبهم على الكهف باسطٌ ذراعيه كأنما يقوم بحراستهم.. يراهم الناسُ نيامًا كالأيقاظ! وأيقاظًا كالنيام!

يتقلبون من جنب إلى جنب ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يتأثروا بهذه النومة الطويلة!

كل من يراهم يُخيل إليه أنهم أحياء!

ومرت ثلاثة قرون وهم بهذا الوضع!

وتغير الحاكم الذي فروا من ظلمه وكفره!

• عودة الحياة إليهم

وإذا الحياة تدب فيهم، وإذا هم أيقاظ! وأخذوا يتساءلون:

تُرى كم لبثنا؟ ويقول قائلهم: لبثنا يومًا أو بعض يوم!

ولم يطل بهم التساؤل فهم جائعون.. ولديهم فضة(وَرِق) يشترون بها ما يبتغون من طعام وشراب!

وليس أمامهم إلا أن يبعثوا أحدهم بورقهم(بفضتهم) إلى السوق ليختار لهم في حذر أطيب الطعام وأفضل الشراب!

إنهم يخافون أن ينكشف أمرهُم فيحدث لهم ما لا تُحمد عقباه!

ومن أجل ذلك يوصون المكلف بشراء الطعام أن يكون لبقًا لطيفًا حذرًا وهم لا يدرون أن حكم الملك الظالم قد انتهى! ومرت أعوام بعده وتغير كل شيء وتبدل وعاد الناس إلى دينهم وعبادة ربِّهم الواحد الذي لا شريك له!

• مفاجأة!

وكانت المفاجأة في سوق الطعام... فالعملة الفضية لم يعد أحد يتعامل بها.. والناس غير الناس! وظن البعض أنه عثر على كنز وعرف الناس أنه غريب قادم من عهود مضت وأنه أحد الفتية الفارين من ظلم الملك وبطشه!

منذ تسع وثلثمائة سنة!

وتجمع الناس ليلحقوا بهم في كهفهم فرأوهم أحياء تشرق بالحياة وجوههم وما هو إلا ارتداد الطرف حتى فارقتهم الحياة!

وهنا قال فريق منهم:

﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۗ﴾ [الكهف:٢١].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف:٢١]

إن العبرة في خاتمة هؤلاء الفتية هى دلالتها على البعث بمثل واقعي قريبٍ محسوسٍ ملموسٍ!

مثل يقرب للناس«قضية البعث» فيعلموا أن وعد الله بالبعث حق وأن الساعة لا ريب فيها!

وعلى هذا النحو بعث الله الفتية من نومهم وأعثر قومهم عليهم ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الكهف:٢١].

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج:٧].

وتستطيع قراءة القصة كاملة في هذه الآيات من سورة الكهف:

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ۝١٧ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ۖ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١٩ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ۝٢٠ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۗ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝٢١ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ۖ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ۖ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ۖ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [٢٦:٩].

موسى عليه السلام.. والعبد الصالح

• هذه القصة

ذكرت هذه القصة.. قصةُ العبد الصالح مع موسى عليه السلام مرة واحدة في سورة الكهف... وليس لها ذكر في غيرها من سور القرآن الباقية.

لقد ذكرها القرآن الكريم في الآيات (٦٠إلى ٨٢) فقال:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ٦٢ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ٧٠ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ٧٤ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ٧٥ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ٧٦ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ

قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع
عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم
مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع
عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف ٦٠:٨٢].

ولم يحدد المكان الذي وقعت فيه أحداث هذه القصة إلا بأنه «مجمع البحرين» ولم يحدد الزمان الذي وقعت فيه القصة من حياة موسى عليه السلام أفي مصر أم في غيرها؟

أما «العبد الصالح» الذي لقيه موسى فلم يحدثنا القرآن إلا عن موقفه من موسى عليه السلام وموقف موسى عليه السلام منه.

• درس للنبي موسى عليه السلام!

ولقد أورد البخاري عند الكلام على هذه القصة في القرآن عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟

فقال :أنا !!

فعتب الله عليه: إذ لم يرُدّ العلم إليه!

فأوحى الله إليه: إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك!

قال: يارب وكيف لي به؟

قال: تأخذ معك حوتا [١] فتجعله بمكتل [٢] فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ [٣]. وانطلق موسى عليه السلام للقاء العبد الصالح، ومعه فتاهُ كانت مهمة الفتى مرافقة موسى عليه السلام في رحلته وحمل الحوت ليكون غداءهما حين ذهابهما إلى «مجمع البحرين» للقاء العبد الصالح!

وقد يكون «مجمع البحرين» ملتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض.. بحر القلزم وبحر الروم كما كانت تسميتها قديمًا!

• شوق للقاء المعلم

كان سيدنا موسى عليه السلام مصممًا على الوصول إلى مجمع البحرين مهما تكن المشقة فكل شيء يهون في سبيل تحقيق الهدف! ألا وهوالعلم.

إنه سوف يلقى «العبد الصالح» ويتعلمُ على يديه ما لم يكن يعلمُ، فالعلمُ بحرٌ لا ساحل له، ولا علم لنا إلا ما علمنا الله!

• اللقاء الكريم

وعند «ملتقى البحرين» كان اللقاء بين نبي الله موسى عليه السلام و«العبد الصالح» الذي آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما!

وانتظر الفتى بعيدًا حتى يعود إليه موسى عليه السلام وبأدب النبوة يستفهم منه موسى عليه السلام ويطلب العلم الراشد- وهو النبي- من عبد الله الصالح العالم!

---

(١) سمكة
(٢) وعاء من خوص
(٣) هناك

• خشية ودعوة إلى الصبر والطاعة في طلب العلم

ولكن العبد الصالح يخشى على موسى أن لا يصبر على صُحبته وتصرفاته، فقد آتاه الله علم الغيب... العلم اللَّدُنّي، وقد تغيبُ عن الإنسان الأسرارُ والحكمُ فيما يدورُ بين الناس من أحداث لا يعلمُ سرَّها إلا اللهُ ومن أفاض عليه من علمه فعلم ما لم يكن يعلم!

ومن أجل هذا قال العبدُ الصالح لنبي الله موسى عليه السلام ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾[الكهف٦٧:٦٨].

ويُظهر له موسى عليه السلام عزمه على الصبر والطاعة ويستعينُ بالله ويُقدِّم المشيئة ويُبدي طاعة التلميذ لأستاذه قائلاً ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾[الكهف:٦٩]

ويذكر له العبد الصالح شرط الصحبة قبل بدء الرحلة .. إن عليه أن يصبر ويصبر حتى يعجز الصبرُ عن صبره!

فلا يسألُ.. ولايستفسرُ عما قد يبدو عجيبًا غريبًا من تصرفاته حتى يكشف له عن سرِّها ويُحيطه علمًا بها فالله يعلم ما لا نعلم.. ولو أطلعنا على الغيب لاخترنا الواقع! ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢١٦] وقد نكره الشيء ومن يدري؟ ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[النساء:١٩].

• قبول موسى عليه السلام بالشروط

ويرضى موسى عليه السلام ويوافق على شرط العبد الصالح لصحبته

ومرافقته ويقول له ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف:٧٠] ويرضى موسى عليه السلام بمرافقته ومصاحبته كما يكون موقف طالب العلم من أستاذه : احترامًا وتقديرًا وإصغاءً وحرصًا وتأدبًا وإذا هما أمام المشهد الأول لهما!

• المشهد الأول

سفينة تحملهما، وتحمل معهما ركابًا، ويُكرمهما أصحابُها فلا يأخذون أجرًا ، وإذا بالعبد الصالح يقومُ بخرق السفينة دونَ وجودِ سببٍ واضح يجعله يُعرِّضُ حياةَ الرُّكاب للخطر فضلا عن السفينة التي أصبحت مَعيبة!

وفكّر موسى عليه السلام فيما فعله العبدُ الصالح، وقال في نفسه: لماذا أقدم على هذا الشر؟!

وتذكر وعده للعبد الصالح بالسكوت، ولكنه اندفع مستنكرًا قائلا له ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف:٧١].

وهنا يقول له العبد الصالح في صبر ولطفٍ:

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾[الكهف:٧٥] ويعتذر موسى عليه السلام ويقبل العبدُ الصالح عذره بعدما قال له ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف:٧٣].

• المشهد الثاني

وانطلقا معًا إلى المشهد الثاني في أمان الله!

وإذا بهما يجدان «غلاما» فيقوم العبد الصالح بقتله عمدًا ودون سابق إنذار !! وينتقيه من بين زملاء له!

لم يستطع سيدُنا موسى عليه السلام أن يصبر على ما رأى فقتلُ الغلام أشدُّ من خرق السفينة وعلى الرغم من تذكُّره لوعده وجد نفسه يقولُ للعبد الصالح:

﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾ [الكهف:٧٤].

إن هذا أمر لا يصحُّ السكوتُ عليه فالغلامُ بريء ولم يرتكب ما يُوجب القتلَ وهو إلى جانب هذه لم يبلغُ الحُلم فليس مؤاخذًا بما يصدرُ عنه!

ويذكّره»العبدُ الصالح» بالشـرط الذي قطعه على نفسه في أول الرحلة قائلاً ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٥].

ويُبدي سيدُنا موسى عليه السلام أسفه، وندمه ، ويعدهُ من جديد فيقول ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴾ [الكهف:٧٦].

• المشهد الثالث:

ويواصلان معًا مسيرتهما في رحلة العلم والتعليم، وإذا بهما أمام المشهد الثالث..

لقد قادتهما قدماهما إلى إحدى القرى وبلغ منهما الجوع مبلغه، فطلبا من أهل القرية طعامًا فأبوا أن يُضيفوهما !! فيا لهم من بخلاء! وسارا فاستلفت نظرهما في هذه القرية جدارٌ يوشك أن يسقط ويتهدم!

وتوقف العبدُ الصالح أمام هذا الجدار يتولى إقامته دون مُقابلٍ! إنه جدار بستان!

وعجب موسى عليه السلام من صنيع الرجل الصالح في هذه المرة الثالثة، وأخذ يفكر قبل أن يُبدي اعتراضه لعل هناك سرًا خفى أمرهُ عليه! وحار في أمره!

إنهم في قرية أهلُها بخلاء أبوا أن يُطعموهما مع أنهما في شدة الجوع، فكيف يقيم لهم حائطًا دون مقابل؟ فلا أقل من أن يأخذ منهم أجرًا مقابل خدمته فقال له:

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧] وكانت هذه الكلمة هى الفيصل! لم يعد لسيدنا موسى من عُذر!

• فراق!

ولم يعد هناك مجال لمواصلة الصُّحبة في هذه الرحلة التعليمية التي لا يعلم سرّها إلا اللهُ والعبدُ الصالحُ الذي آتاه الله رحمةً من عنده وعلّمه من لدنه علما! وهنا قال العبد الصالح لموسى عليه السلام:

﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:٧٨].

وحزن موسى على ما قد يكون وراء هذا الفراق قبل معرفة السر، ولكن العبد الصالح قال له﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨].

• السر الذي غاب عن موسى!

ينبغي أن تعلم أن فوق كلِّ ذي علم عليم! وأن الله واهبُ العلم وعلينا أن ننسب علمنا إلى الله الذي علّمنا ما لم نكن نعلم!

• سر السفينة!

ويأخذ السِّرُّ في التجَلّي! حين يكشف عنه العبد الصالح قائلاً ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف:٧٩].

وقال موسى عليه السلام : سبحان الله الذي يعلم السر وأخفى فبهذا العيب نجت السفينة من يد الملك الظالم وكان الضررُ الصغيرُ الذي لحقها اتقاء للضـرر الكبير لو بقيت سليمة!

اللهم إنك تعلم ما لا نعلم!

• سر الغلام!

وتطلعت نفس موسى عليه السلام إلى معرفة سر الغلام، فقال الرجل الصالح ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ٨٠ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف٨٠:٨١].

فقال موسى : سبحان الله لا يعلم الغيب إلا الله : لله حكمة فلو عاش هذه الغلام الذي كانت تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان لأرهق أبويه المؤمنين وأراد ربُّنا أن يريحهما منه ويُبدلهما ما يُعوّضهما عنه من الأبناء الصالحين!

• سر الجدار الذي كان مائلا فأقامه!

بقي الجدارُ.. جدارُ البستان الذي أقامه العبدُ الصالح على الرغم مما كان من أهل القرية نحوهما ! فقال:

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٨٢].

إن هذا الجدار كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحًا فمن لليتيم غيرُ الله يرعاه؟!

لقد أراد اللهُ أن يحافظ لهما على كنزِهما حتى يكبرَا إكرامًا لضعفهما وصلاحِ أبيهما!

وعندما انكشف الغِطاء عن السر في هذه الثالثة عرف موسى أن الله وحده هو عالم الأسرار التي لا يُكشف عنها للإنسان إلا بمقدار! وأن فوق كل ذي علم عليم!

وأراك تقول: كيف لمثلي أن يعلم ما لم يكن يعلم؟

وأقول كما قال الله لنا:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٨٢]

ذو القرنين..

ورحلات الخير في الشرق والغرب

• نموذج الملك الصالح

حياة ذي القرنين كانت كلها ارتحالا وفتحا واستكشافا وإصلاحا.. هكذا كانت رحلاته التي حدثنا عنها القرآن إلى المغرب ثم إلى المشرق! فتعال نتابع خطواته...

• رحلته إلى مغرب الشمس

رحل إلى مغرب الشمس فاتحًا غازيًا لا يبالي بما يصادفه من عقبات ما دام الله قد مكَّن له في الأرض فمن كان مع الله كان الله معه!

جنوده في منتهى الطاعة والانقياد وكل ما هو في حاجة إليه من توطيد ملكه مهيأ له وطوع أمره فلا عجب أن يمنحه الله في القتال حظًا سعيدًا وفتحًا مبينًا!

وظل يواصل السير والفتح حتى وصل إلى «عين» اختلط ماؤها وطينها فخيل إليه أن الشمس تغرب فيها، أو تختفي وراءها!

وظن أن هذه نهاية المسير، ولا فتح بعدها.. ولكنه رأى عندها أقوامًا فيهم غلظة وشدة.. سفكوا الدماء ونشروا الفساد!

فاستخار الله في أمرهم ، ماذا يصنع بهم؟!

فخيره الله بين سبيلين يختار أحدهما ويسلك ما يريد منهما إما أن يذيقهم القتل وينكّل بهم جزاء كفرهم وطغيانهم.

وإما أن يمهلهم ويعطيهم فرصة لعلهم يهتدون ويرتدعون! فاختار ذو القرنين الإمهال على القتل ثم قال:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُ جَزَآءَ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف٨٧:٨٩].

وأقام فيهم مدة.. نصر المظلوم، وضرب على يد الظالم، وأخذ بيد الضعيف ونشر لواء الإصلاح، وهكذا يكون الولاة والقادة مع شعوبهم!... ثم ماذا؟

• رحلته إلى مشرق الشمس

إن لديه مهمة عظيمة يريد أن يقوم بها لينشر العدل في الأرض، وما دام قد اطمأن على الغرب فليرحل إلى الشرق ليعم العدل العالم وترفرف أعلام السلام!

وبدأت رحلة الفتوح العظيمة، والمهام الجسيمة ، فسار غازيًا، ومجاهدًا، وظافرًا، منتصرًا، مؤيَّدًا بتوفيق الله، وما النصر إلا من عند الله!

وهناك وجد شيئًا عجيبًا غريبًا استلفت نظره، فتوقف عنده بعد أن وصل في سيره إلى غاية العمران في الأرض!

فماذا وجد هناك؟ وماذا رأى؟

لقد وجد أقواما تطلع عليهم الشمس ولكن ليس لهم بيوت تسترهم ولا أشجار تظللهم ولكنهم في حالة من الفوضى وقد بلغ بهم الجهل منتهاه!

فبسط على بلادهم لواء حُكمه ونوَّرهم بعلمه ورأيه فاستناروا وصلح حالهم! ووصل العمران إلى بلادهم!

• هيا إلى الشمال:

كان لابد أن يفارق «المشرق» متجهًا إلى الشمال بعد أن تحقق له ما أراد.. فليكمل المسيرة.. مسيرة الإصلاح... والعدل والحق.. والخير!

وانتهى به المسير إلى بلاد بين جبلين يسكنها أقوام من الصعب فهم لغتهم والتحدث إليهم ولكنهم يعانون من مشكلة تقُضّ مضجعهم وتنغّص عليهم حياتهم!

لقد جاوروا «يأجوج ومأجوج» وهم قوم يعيثون في الأرض فسادا رُكّب الشر في نفوسهم، وامتزج الفساد بقلوبهم!

لا ينفع معهم نصح، ولا يحول دون عدوانهم سيف!

• اقتراح ينتظر التنفيذ:

وفكر ذو القرنين في حمايتهم!

واقترحوا عليه بعد أن اطمأنوا إليه أن يقيم لهم سدا يحول دون عدوان يأجوج ومأجوج! وهم على أتم الاستعداد لكي يدفعوا له ما يريد!

ولكن ذا القرنين قد أغناه الله بالحلال، ومكنه من كنوز الأرض وخيراتها وعنده ما يكفيه!

لقد أجابهم إلى سؤالهم ورد عليهم أموالهم وقال لهم ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف:٩٥].

فقط طلب منهم اليد العاملة.. والخامات المطلوبة لإقامة السد..

طلب منهم أن يُعينوه على ما يفعل.. ويساعدوه على ما يصنع.. وإذا بهم يضعون بين الجبلين قطع الحديد ومن حولها الفحم والخشب وإذا به يُفرغ على ذلك كله النحاس المذاب! وإذا بالفراغ الذي بين الجبلين يصبح سدًا منيعًا قائمًا أملس لا يتسنى تسلقه أو اختراقه!

وارتفعت الأصوات شاكرة لذي القرنين مروءته وشهامته ونجدته وشفافيته بعد أن أراحهم الله من يأجوج ومأجوج!

أما ذو القرنين فقد نظر إلى السد ورآه حصينًا منيعًا قائمًا فهتف من كل قلبه معترفًا بفضل ربه ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾[1] [الكهف:٩٨].

لقد كان ذو القرنين رجلاً صالحًا مؤمنًا ملّكه الله شرق الأرض وغربها!

إنه لم ينس في قمة نجاحه وانتصاراته فضل ربه عليه وما حققه على يديه فلولا رحمة الله وفضله ما تحقق من ذلك شيء!

---

(١) دكاء: أرضًا مستوية.

يرحمه الله لقد كان ملكًا صالحًا مكن الله له في الأرض مشارقها ومغاربها! إننا نذكره لا لأنه ملك ، ولكن لأعماله الصالحة ومواقفه النبيلة!!

وكم نحن بحاجة إلى مثل ذي القرنين في أيامنا هذه التي ساد فيها الكيل بمكيالين.

كم نود أن يسود قانون الجزاء العادل في المفسدين والمصلحين حتى تتحسر موجات الفساد على الأرض وتتوقف الاغتيالات!

كم نحن بحاجة إلى مثل ذي القرنين ليأخذ بيد الدول النامية المستضعفة ليعلمها كيف تعتمد على نفسها وتشترك في بناء نهضتها!

يارب! في القرن «الحادي والعشرين» ظهر الفساد في البر والبحر فمن يقيم السد في وجه أولئك الذين يغيرون على الأراضي العربية حتى يتحقق أمل الانتفاضة الفلسطينية؟!!!

سدّ مأرب..

الذي دمّرته السيول، وسرّ تدميره!

• سد هنا وسد هناك:

إذا كان «سَدُّ أُسوان العالي» في مصر، في عصرنا الحاضر رمزًا للخصب والخير والنماء والازدهار، وأعظم سد في العصر الحديث فإن «سدّ مأرب» في اليمن-قديمًا- كان له عظيمُ الشأن، ووافرُ العطاءِ والخيرِ والنَّماء!

• سدّ مأرب في القرآن وسر تدميره!

وقد حدثنا القرآن الكريم عن ذلك السد والسيل الذي أطاح به ودمره بعد أن كفروا بالنعمة ولم يذكروا فضل الله عليهم فقال ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ[1] فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟[2] فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ١٥:٢٠]

---

(١) لسبأ: لولد سبأ ، وسبأ :رجل من العرب. آية : علاقة أنه لا رب لهم إلا الله الذي أنعم عليهم. جنتان: بستانان بين جبلين.

(٢) فأعرضوا: عن طاعة الله عز وجل. فأرسلنا عليهم: فبعثنا على سدهم الذي كان يحبس السيل. العرم: الذي لا يطاق أو هو اسم الوادي. وبدلناهم بجنتيهم جنتين من الفواكه والثمار بساتين من ثمر الأراك وهو «الخمط». ذواتي أكل: ذواتي ثمر . وأثل: شجر الطرفاء أو ما يشبه الطرفاء. سدر: شجر النبق.

• حذار من الإعراض!

لقد قامت دولة سبأ باليمن.. وفي مدينة «صرواح» أقاموا القصور الشامخة، ثم انتقلوا منها إلى «مأرب» واتخذوها حاضرة لهم، وإن شئت فقل عاصمة. حيث طابت الحياة وتقلبوا في العز والنعيم.

ومدينة مأرب تقع في نهاية وادٍ فسيح يلتقي بمجرى السيول المنحدرة من جبل السَّراة!

وهداهم الله إلى إقامة الحدود والحواجز للانتفاع بالمياه! وكان «سد مأرب» أقواها، وأمتنها، وأكثرها نفعًا كالسد العالي عندنا!

• أثر سد مأرب في حياة سبأ!

وظهرت آثار السد واضحة جلية فأصبحت الصحراء جنات خضراء عن يمين وشمال تجري فيها القنوات، وتفيض بالخير والبركات.

هذه أشجار دانية القطوف وتلك أزهار مختلفة الأشكال والألوان! ما بين أبيض ناصع إلى أصفر فاقع إلى أحمر قانٍ! والنسيمُ وما أدراك ما النسيمُ... يمر بالورود فيقبّلُها ثم يحمل عطرها إلى أهل سبأ حقًا إنه اليمن السعيد! فهذه الثمار الدانية في متناول الأيدي والأفواه!

حتى إن المرأة كانت تسيرُ تحت الأشجار حاملةً وعاءً من خوص (مِكتل) فوق رأسها فلا تلبث أن تعود وقد امتلأ الإناء بما لذ وطاب من الثمر الذي استوى على عوده واكتمل نضجه!

حقًا لقد كانت سبأ على جانب عظيم من الحضارة والنعيم المقيم!

• سر بقاء النعم أو زوالها:

وفي ظل هذا النعيم المقيم كانوا يعيشون ويتمتعون ويأكلون ويشربون ! ويتعاطون تجارة الذهب والأحجار الكريمة! وبقاء النعم أو زوالها مرهون بشكرها أو كفرها! لكن «سبأ» لم يشكروا الله وكفروا بالنعمة وصمّوا آذانهم عن كل نصح ونسُوا الله واهب الحياة فأنساهم أنفسهم!

وشغلهم ما هم فيه من ترفٍ ونعيم عن البناء والتعمير، وانصرفوا عن العمل المثمر الخلاق وكفروا بنعمة الله!

فلم يعد يناسبهم إلا زوالُ هذه النعمة عنهم، ليصبحوا مثلا لغيرهم وعبرة لمن يأتي بعدهم!

حقًا إن المعاصي تُزيل النعم! وشكر الإله هو سر بقائها! وجاء أمر ربك! تدفقت السيول... فأهلكت الزرع والضرع.. وانهار السد الذي كان يحمي البلاد من الغرق!

وأصبحت البلادُ صحراءَ جرداء لا نبات فيها ولا ماء سوى أشجار ليس فيها غناء (فائدة) لا تثمر إلا كلَّ مُر، وأثل وشيء من سدر (نبق) قليل!

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ:١٧].

وتفرقوا هنا وهناك ونزحوا عن ديارهم ثم تمزقوا في شتى البلاد ومُزقوا كل ممزق وصار يضرب بهم المثل في كل من تفرقوا فقيل:

«تفرقوا أيدي سبأ» أو «ذهبوا أيدي سبأ» أو «أيادي سبأ» تشبيهًا بأهل سبأ حيث أخذت كلُّ طائفة منهم طريقها على حده!

واليد: الطريق، فمنهم من انحاز إلى الشام ومنهم من ذهب إلى يثرب ومنهم من ذهب إلى تهامة ومنهم من ذهب إلى عُمان.. كلّ في طريق! وفي طريقهم كانت كلمات تنساب إلى آذانهم:

إن المعاصي تُزيل النعم!!

أصحاب الأخدود.. والنارُ ذات الوِقود!

• في المثل العربي:

«لابدَّ من صَنعا وإن طال السفر»!!

و«صَنعا» هى صنعاء عاصمة اليمن منذ القدم وعُرفت قبل الإسلام بقصورها(قصر غمدان والقُلّيس) ويقول التاريخ:

«ذات يوم في عهد الملك «ذي نواس» أحد ملوك حمير التبابعة قام بحفر أُخدود عظيم وفيه النار ليكون «محرقة» لأهل نجران بني الحارث ابن كعب الذين رفضوا ترك دينهم إلى اليهودية!!» وكانت طوائف من اليهود الذين شردهم بختنصر قد تسللوا إلى شبه الجزيرة العربية وبلغوا أقصاها في اليمن.

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا الأخدود والمحرقة التي أقيمت للمؤمنين من النصارى على أيدي اليهود فما تفصيل ذلك؟

يقول التاريخ: ذات يوم كان الملك «ذو نُواس» في قصره يفكر في إرجاع اليهودية في اليمن إلى ما كانت عليه بعد أن انتهى من قتل «ذي الشناتر» وتوطيد الملك في صنعاء!

• عزم على نشر اليهودية!

وقال الملكُ في نفسه : لابدَّ من غزوةٍ بعيدة تنتظم الشرق والغرب والسهل والجبل!

وأقسم يمينًا غليظًا ألا يهنأ له بال، ولا يغمض له جفن حتى يرى اليهودية دينًا شاملاً، وحكم التوراة نافذًا!!

كان ذلك قبل ظهور الإسلام والناس ما عدا اليهود بين وثني ونصراني!

وبينما هو يفكر إذا برجلٍ قادم من «نجران» على فرس له يريد لقاء الملك!

و«نجران» إقليم باليمن من ناحية مكة، وكان منه «نصارى نجران» الذين وفدوا على النبي محمد ﷺ بعدما بُعُث فأحسن استقبالهم وأكرم وفادتهم وحاورهم وحاوروه، واستمع إليهم واستمعوا إليه وجادلوه، وجاء ذكر قصتهم في القرآن في سورة آل عمران!

• الفارس وما وراءه من أخبار

كان هذا الفارسُ القادمُ من نجران على الملك «ذي نُواس» يحمل رسالة خطيرة إليه جاء فيها أن أمرًا خطيرًا قد وقع، ويوشك أن يمتد إلى غير نجران مما جاورها!

وسأل الملكُ ذو نُواس ذلك الفارس عما حدث تفصيلاً فقال الفارس:

إن دينًا جديدًا قد دخل على نجران هو «النصرانية» ويبشرون له باسم السيد المسيح عيسى ابن مريم!

فقال الملك ذو نواس: وما موقف الناس منه في نجران؟

قال الفارس: أما الوثنيون من أهل البلاد فقد ارتاحت نفوسهم إلى هذا الدين الذي يُبشّرُ بالمحبة والسلام!

وأما اليهودُ: ففريق منهم صبأ عن دينه وتخلى عنه ودخل فيما دخل فيه الوثنيون!

وفريق آخر من اليهود ظلّ على دينه متمسكًا به لكنه يمر بمحنة ويتناقص عدد اليهود يومًا بعد يوم!

فإن لم يتداركهم الملكُ بنجران فإن اليهودية سوف يُقضى عليها ولا يبقى على الساحة إلا النّصرانية!

• غضب وثورة!

وثارت ثائرةُ ذي نُواس، وغلى الدمُ في عروقه وأخذ يتساءل: كيف يظهر في نجران دينٌ غير اليهودية؟ وكيف يعلو فيها حكمٌ لغير التوراة؟!

إن هذا لعجيب!!

يا لهم مني!!

وخرج «ذو نُواس» من صنعاء بجيش جرّار قاصدًا نجران! فلما وصل إليها ضرب حصارًا حولها فارتاع الناسُ وذُهلُوا!! وخرج إليه سادتُهم وكبراؤهم فقال لهم:

إني أخيِّركم بين اليهودية ديني اليوم ، ودين تُبَّعٍ من قبل وبين الدين الجديد الذي اعتنقتموه!

وليس أمامكم إلا أن تفكروا في المصير الذي ينتظركم على يدىّ إن اعتنقتم غير اليهودية واتخذتم النصرانيّة لكم دينا!!

• فاجابوا على الفور:

النصرانيةُ دينٌ آمنّا به وأحببناه ولا نرضى به بديلا ولا عنه تحويلا دين السيد المسيح الذي جاء بعد موسى عليهما السلام!

وسواء علينا أوسَّعت لنا في الأجل أم عجلت لنا بالموت فالموت في سبيل الله أحلى أمانينا!!

• إقامة محرقة كبرى!

فلما رأى الملكُ إصرارهم أمر بشقّ «أُخدود» في الأرض وأحضر حطبًا ووقودًا وأشعل النار حتى تأججت وامتلأ الجوّ دُخَانا خانقًا ولهبًا حارقًا ثم أصدر أمره بإلقائهم في نار ذلك الأخدود أحياء وكُلُّ ذنبهم أنهم مؤمنون!

لم يتركوا شيخًا فانيا ولا امرأة عجوزا ولا طفلاً رضيعا إلا وألقوه في النار الحامية!

• اليهود بين ماض وحاضر!

«ذو نواس» أقام للمؤمنين بالسيد المسيح عليه السلام محرقة وأشعل فيهم النار!

وما أشبه الليلة بالبارحة!! فإسرائيل تُلقي على الفلسطينيين والعرب قنابل «النابلم» وصواريخ من فوقهم ومتفجرات من تحت أرجلهم وتغتال قادتهم لا لشيء إلا لأنهم عرب سواء منهم في ذلك من اتخذ النصرانية أو الإسلام له دينا!

وظل ذو نواس ورجالُه يشهدون ما يدورُ في تلك المحرقة وما كنا ندري من أمرها لولا أن القرآن الكريم أخبرنا بها ومن أصدق من الله حديثا..

في «سورة البروج» تتناول الآيات العشر الأولى قصة ذلك الأخدود الذي أقامه ذو نواس للمؤمنين بالله من النصارى! وهى تقول:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج١:١٠].

أصحابُ الجنة.. وما حلّ بها وهم نائمون!

• الأب الصالح وأبناؤه الثلاثة في حديقتهم:

ذات يوم جلس «الشيخُ الكبير» في حديقته وإن شئت فسمِّها جَنّة أو جُنينة أو بُستانا! وكان معه أولاده الثلاثة وقد تمنى أن يكونوا مثله في عمل الخير وخير العمل ما دام اللهُ قد بارك لهم في جنتهم فإذا هى متعةُ النواظر ونُزهةُ الخواطر.. ظلُّها ظليل وماؤها نمير ثمارُها دانية وأشجارُها باسقةٌ عالية!

ونظر الأب فإذا «يومُ الحصاد» قد اقترب.. إنه بحق يومُ عيدٍ في حياةِ «صاحب الجنة» الذي يُعطي ويتلقى دعوات الفقراء وشُكرهم!

وهو «يوم عيدٍ» في حياة «الفقراء» الذين يفدون فيه على هذه الجنة ليأخذوا حقَّهم من زكاة الزُّروع والثمار ثم يعودوا وعلى شفاههم بسمةٌ وفي قُلوبهم فرحة وعلى ألسنتهم دعواتٌ مخلصاتٌ لصاحب الجنة أن يزيده اللهُ مما أعطاه!

• تحديد موعد الحصاد وقطف الثمار

وهنا نادى الأبُ البستانيّ وأعوانه وحدد لهم موعدًا يتمُّ فيه الحصادُ وقطفُ الثمار بحضور الفقراء والمساكين وأبناء السبيل!

فذلك الفضلُ من الله وهذا حقُّهم وهم ليسوا إلا شركاء فيه!

ونظر الأبناءُ بعضُهم إلى بعض حين سمعوا مقالةَ والدهم وما يفكرُ فيه وتملكتهم الحسرةُ وظهر الغضبُ في وجوههم!

• حوار حول عيد الحصاد وما يحدث فيه:

لقد كانت عادةُ الأب أن يُوَسِّعَ على الفقراء والمساكين كلَّ عامٍ وكأنهم شركاءُ له في جنته!

ومع الصدقة كان الخيرُ يزدادُ وكانت البركةُ تملأُ الجنة!

هذه وجهةُ نظر الأب وعقيدتهُ التي كانت تُسيطر عليه أما الأبناء فكان لهم رأي آخر إلا واحدًا منهم!

قال قائل منهم لأبيه : إنك تُضَيِّق علينا وتبخسُنا حقَّنا ولو وفّرت هذه الأموال التي تُعطيها للفقراء عامًا بعد عامٍ لأصبحنا من كبار الأغنياء!

ووقع كلامُ هذا الابن على قلب الأب كالصاعقة فلم يكن يتوقع أن يصدر منه مثلُ ذلك الكلام!

وأخفى الوالدُ ألمه وقال للثاني:

ثم ماذا؟

قال الثاني: لو استمرت سياستُك هذه في إعطاء الفقراء فإننا لن نجد بعدك ما نُنفقه فإن قرشًا إلى قرش ثروة! ونحن نقول في أمثلتنا العامية «خذ من التَّلّ يَختلّ» .

وهمَّ الثالثُ بالكلام لكن الأب أشار إليه بالتوقف والصمت! وسكت هو قليلاً ثم قال:

اعلموا يا أبنائي أن هذا البستان ليس مالي ولا مالكم كما ظننتم إنما هو مالُ الله جعلني خليفةً عليه إن أحسنتُ زادني وإن بخلتُ به على الفقراء والمساكين حرمنى!

وفي هذا المال حقٌّ معلومٌ للسائلِ والمحرومِ وما فضل فهو لي ولكم وربُّنا قال لنا.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧].

والشكر: عطاء وعمل ومُساعدة ومعاونة! وإسهام في تخفيف آلام الناس!

وقد علمتني الأيام:

- أنه لا ينقُصُ مالٌ من صدقة!
- وأن ماعندنا ينفد وما عند الله باق!
- وأن البركة من الله الذي يُعطي من يشاءُ بغير حساب!

ويمكن أن تنزل بالزرع آفةٌ من الآفات فلا نجدُ ما نأخذه ولا ما نعطيه!

وهذه عادتي ولن أتخلَّى عنها مادمتُ حيّا فإذا لقيتُ ربي فافعلوا ما شئتم!

واعلموا أيها الأبناء أن الله قد وعد كُلَّ مُنفقٍ خلفًا ووعد كل مُمسك تلفا!

فليختر كل منكم لنفسه ما يحلو له!

وسالت دموعُ الأبِ على خديه فأظهر الأبناءُ شفقة عليه وهم له مخالفون في الرأي إلا واحدًا منهم وهو الذي يشبه أباه في العقل والحكمة وحب الخير!

• يوم الحصاد يقترب وتكاد ساعة التنفيذ تدق

ومرت الأيام ثقيلةً متباطئة.. ولقى الوالد ربّه فإذا هم أصحاب الجنة.. الرأي رأيهم والكلمةُ كلمتهم!

لقد اقترب «يومُ الحصاد» الذي كان في عهد أبيهم موسمًا للخير وللحب وللشكر وللتعاون على البِّر والتقوي لا على الإثم والعُدوان!

وقبل الموعد المحدد عقد الأبناء اجتماعًا لتبادل الرأي فيما يمكن عملُه لتحقيق مآربهم وتنفيذ خُطتهم ويا لها من خطةٍ شريرة!

وقال أحدهم لقد انتهى زمنُ الفوضى والأبوابُ المفتّحة لكل من هبّ ودبّ فلا حقَّ لسائل أو محروم ولا مكان في حديقتنا لقاصدٍ أو ابن سبيل!

لقد أصبح لكل منّا نصيبُه يسهر عليه ويستثمره ليتزايد ويتنامى ويتكاثر وقال أخوه:

أنا معك أؤيدك فيما ذهبت إليه ونعم الرأي رأيُك!!

وأحسّ أوسطُهم الذي كان شبيها بأبيه أنّ عليه رسالةً لابُدّ أن يُبلّغها لهما!!

لابد أن يقول كلمته وأجرهُ على الله! فقال لهما:

إنكما تُقدمان على أمرٍ لا خير فيه... تظنان فيه النفع ولكنه يحملُ الشرَّ والقضاء على بُستانكم!

وحذار أن تحرما الفقراء والمساكين فقد يثورون عليكما وثورتهم لا تُبقي ولا تذر!

وقد قالوا في الأمثال «اتق شرّ من أحسنت إليه بدوامِ الإحسان عليه!» لا بقطعه عنه ! وصاح فيه أحدهُما: كُفَّ عنَّا نصائحك ولا تقترح شيئًا فيما لا تملكُ وأبق النصيحة لنفسك!

وانفضّ المجلسُ وتركاه وهما يفكران في خطة شريرة!

• الخطة الشريرة!

لقد قررا أن يبادرا بحصد زرع الحديقة وجنى ثمارها في الصباح الباكر قبل أن يأتي الفقراء إليها حتى إذا أقبلوا لم يجدوا شيئًا!

وبادرا بالنوم ليتسنّى لهما التبكيرُ لقطف الثمار وحصاد الزرع!

وعلم اللهُ سوء النية فطاف عليها طائف من ربك فأصبحت جرداء لا نبات فيها ولا ماءَ!

وتوجه الأبناءُ الثلاثةُ إلى الحديقةِ وهم يتلفتون حتى لا يراهم أحدٌ! فلما اقتربوا من حديقتهم التي تركوها بالأمس مُورقة الأشجار دانية القُطوف فوّاحة الزّهر لم يجدوا شيئًا من هذا!

وقالوا في أنفسهم : لقد ضللنا حديقتنا فلنبحث عنها!

قال أوسطهم : بل هى جنتُكم التي أردتم حرمان الفقراء حقَّهم منها فحرمكم الله وجزاكم شرًا بشر!

فارتفع صوتُهم بالبكاء والندم حيث لا ينفع الندم!

لقد نفذ السهم وما ربُّك بغافل عما يعملون!

وجاء الفقراء فرحين فإذا هى خاوية على عروشها تصيح فيها البوم والغربان فعرفوا أن صاحبهم قد مات وأن الخير قد انقطع بموته!

ولقد سجل القرآن قصة أصحاب الجنة في سورة «القلم» لتكون عبرة وعظة لكل من يبخل بماله ويمتنع عن أداء حق الله عليه فيقول:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ [1] كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا [2] طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ [3] ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ [4] إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ [5]

---

(١) بلوناهم: يعني المشركين.. مشركي قريش: امتحانهم واختبرناهم. أصحاب الجنة: أصحاب البستان قيل :هم أناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة يطعم منها المساكين فلما مات أبوهم قالوا: إن كان أبونا لأحمق حين يطعم المساكين. ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ لا يطعمون مسكينًا والصرِّم : القطع يقول إذ حلفوا ليقطعون ثمرها إذ أصبحوا «لا يستثنون» : ولا يقولون :إن شاء الله!

(٢) فطاف عليها طائف:أمر من ربك

(٣) فأصبحت كالصريم:قيل : كالليل البهيم محترقة سوداء.

(٤) ﴿ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ ﴾ : زرعكم ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ : حاصدي زرعكم ﴿ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴾ : يتسارون بينهم ويهمس بعضهم إلى بعض.

(٥) ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴾ أي: غدوا على أمر قد قصدوه واعتمدوه واستسروه بينهم قادرين عليه في أنفسهم.

﴿ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (١) ٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ (٢) أَلَمْ
أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣) ٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٤) ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن
يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم٦٨:١٧-٣٣].

---

(١) ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾: حرمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها.

(٢) ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾: أعدلهم وخيرهم ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ هلا تستثنون فتقولون: إن شاء الله!

(٣) ﴿ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾: على ما فرطوا فيه من الاستثناء وعلى ما كانوا أضمروا من منع المساكين.

(٤) ﴿ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾: متعدين أمر ربنا.

صاحب الجنتين..

ونظرة التعالي في حواره مع صاحبه الفقير!

• رجلان وجنتان لأحدهما

يقص القرآن الكريمُ علينا قصةَ ذلك «الغنيِّ» صاحب الجنتين وما دار بينه وبين صاحبه «الفقير» من حوار أُسدل بعده الستار على مَشهدِ الجنة خاوية على عروشها!

وصاحبُها الغنيُّ المغرور يُقَلِّب كفَّيه على ما أنفق فيها أسفًا وندمًا!

وإنك لتجد هذه القصة في «سورة الكهف» مع غيرها من القصص! ضربها الله لكفار مكة مثلاً حين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد الفقراء من مجلسك، ليعتبروا، ويزدجروا ، ويشكروا ... والويلُ لمن يجحدُ ويكفرُ ولا يشكرُ!

يقول ربنا لنبيه ﷺ :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا [1] وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣ وَكَانَ

---

(١) كان المشركون في مكة قد سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي من مجلسه حتى لا يشاركوهم فضرب الله لهم مثلاً رجلين.

جنتين: بستانين ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾ كلا البستانين أطعم ثمره وما فيه من النخل والكرم، وصنوف الزرع ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ﴾: ولم تبخس ﴿ وَفَجَّرْنَا ﴾ : سيّلنا. ﴿ خِلَٰلَهُمَا ﴾: بينهما.

لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ [1] أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف ٣٢:٣٤].

إنها قصة رجلين :أحدهما غنى والآخر فقير... أحدهما يعتز ويفتخر بالقيم الزائلة الزائفة والآخر على خلق ودين! يعتز بالقيم الخالدة الباقية!

أحدهما : يتباهى ويزهو ويفتخر بما هو فيه ويتعالى على غيره من عباد الله الطيبين الصالحين!

أحدهما: كافرٌ بنعمة الله جاحدٌ لها والآخرُ راضٍ بما قسم الله ، لا يكف لسانُه عن ذكر الله وشكره.

• حوار على باب الجنة!

وذات يوم دار بينهما حوارٌ على باب إحدى الجنتين حيث النهرُ الذي يَفصلُ بينهما وحوله المُروجُ الخُضر والنخيلُ وتطلُّ عليهما عناقيدُ العنب، وألوان الثمر، وتُغرّد الطيورُ مسبحةً بحمد الله وشكره ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء:٤٤].

أما صاحبُنا الغنيّ.. صاحبُ الجنتين فقد تملكه الغُرورُ، ونسى نعمةَ اللهِ عليه، فلم يُقطِّر لسانهَ بذكر الله وشكره بل انتفش كما ينتفشُ الديكُ واختال كما يختال الطاوسُ ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف:٣٤].

---

(١) وكان له ثمر: ذهب وفضة، وقيل : من كل المال . ﴿ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾: يخاطبه، كما قال الكفار: نحن سادات العرب وأرباب الأموال فنحٌ عنا سلمان الفارسي، وخبّاب بن الأرت، وصهيبًا الرومي احتقارًا لهم ، وتكبرًا.

لقد نسى الله الذي أعطاه.. وافتخر بالمال والرجال حوله ناسيًا أن المالَ والولدَ ظلٌّ زائل وعارِيةٌ مُستردّة! والدوامُ لله وحده!

وقديمًا كتب أحد الملوك على بابه:

«لو دامت لغيرك ما وَصلَت إليك!!»

لقد ظن هذا المغرور صاحبُ السلطانِ والثراءِ والجاهِ أن منزلته ستظلُّ محفوظةً له في الملأ الأعلى وأن جنته لن تبيد أبدًا ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[1] [الكهف٣٥:٣٦].

هكذا خيل له شيطانهُ.. وتملكَه الغرورُ والتعالي على الناس!

أما صاحبُه الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جَنةَ عنده ولا ثمر فإنه راضٍ بما قسم اللهُ شاكرٌ لله أنعُمَه.. ونعمُ الله لا تُعد ولا تُحصى!

لقد أنكر على صاحبه غُروره وكبره وتعاليه على عباد الله وذكّره بخالقه ووجهّه إلى الأدبِ الواجب في حق الخالق المنعم!

وأنذره عاقبةَ الغُرور وكفران النعمة وجُحودها!

وطلب من اللهِ أن يُعوّضهُ خيرًا حين يلقاهُ.. خيرًا من جنةِ الغنىّ وما فيها من نهر وثمر! وحكى ذلك القرآن فقال ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ

---

(١) ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾: ظلمه لنفسه هو كفره بالبعث وشكه في قيام الساعة ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾: أن تفنى وتخرب هذه أبدًا، ثم تمنى على شك منه فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾: يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل منها في الآخرة إن رُددت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه. منقلبًا: مرجعًا ومردًا.

أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا (١) ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا (٢) هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف٣٧:٣٨].

• توجيه وإرشاد:

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (٣) [الكهف:٣٩].

• وإنذار وتذكير:

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا (٤) مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا (٥) فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ [الكهف٣٩:٤١].

وهكذا يكون المؤمن في مواجهة الغرور والجحود.. يوجه وينذر ويرشد ويذكر لا يهاب المال والنفر.. يقول كلمة الحقّ.. ولا يخشى في الله لومة لائم!

إن الساكت عن الحق شيطان أخرس!

وما عند الله باق.. وما عند الناس زائل!

وفضلُ الله عظيم .. لكن عذابه أليم!

---

(١) ﴿ سوّاك رجلا ﴾ :عدلك بشرًا سويًا.

(٢) ﴿ لكنا ﴾ : بمعنى أنا أقول: هو الله ربي.

(٣) ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دخلت جَنَّتَكَ ﴾ :بمعنى هلا إذ دخلت بستانك فأعجبك، قلت ما شاء الله، وهذا مثل سليمان وأصحابه!

(٤) ﴿ حسبانا ﴾ : عذابًا من السماء ترمي به رميًا، ﴿ فَتُصْبِحَ ﴾ : يعني جنته ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ : أرضًا ملساء لا شيء فيها ولا يثبت في أرضها قدم.

(٥) ﴿ ماؤها غورا ﴾ : قد غار في الأرض.

وظل الغني على غروره وجحوده ولم تنفعه الموعظة، ولم يصرفه الإنذار عما هو فيه ، فما هى إلا أيام حتى حدث ما توقعه الرجلُ المؤمنُ!

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[البروج:١٢].

فماذا حدث ؟ يقول ربنا ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾[1] [الكهف :٤٢]

ونظر حوله فإذا الثمر كله مدمر ، والجنة مهشمة محطمة خاوية على عروشها!

وكأنها لم تكن!

وإذا هو يقلب كفيه ندمًا وأسفًا على ما كان!

أين ماله؟ وأين غرورهُ وكبرياؤه؟

أين قوتُه؟

أين النفر من حوله؟ لقد تفرقوا عنه ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾[2] [الكهف:٤٣].

لا قوة إلا بالله.. أما قدرةُ الإنسان المغرور المخدوع فقد توارت ولم تعُد شيئًا مذكورًا وهذه هى عبرة الحياة!

إن قصة الجنتين تصور كيف يعتزُّ المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة!

---

(١) ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾:أحاط الهلاك والآفات بثمره ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾: يصفق كفيه متلهفًا على ما فاته نادمًا. ﴿ وَهِىَ خَاوِيَةٌ ﴾:خالية، ﴿ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾: بنائها وبيوتها.

(٢) ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ ﴾: عشيرة وجماعة ﴿ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: يمنعونه من عقاب الله عز وجل إذا عذبه.

وكيف يواجه صاحبها المنتفش المنتفخ- بالحق ويؤنبه على نسيان الله! ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[1] [الكهف٣٧:٤١].

• مثل آخر للحياة وسرعة زوالها!

وعقب هذه القصة يضرب الله مثلاً للحياة وسرعة زوالها بعد ازدهارها ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[2] [الكهف:٤٥].

•ويعقب في النهاية على القيم الزائلة والقيم الباقية ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[3] [الكهف:٤٦].

---

(١) ﴿هُنَالِكَ﴾: حين حل عذاب الله عز وجل-بصاحب الجنتين في القيامة. ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ﴾: الموالاةلله، وتقرأ أيضًا بكسر الواو من الملك والسلطان ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: عاقبة.

(٢) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: يعني الذين قالوا للنبي ﷺ: اطرد عنا هؤلاء الفقراء ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾: يابسًا مفتتًا ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾: تطيره.

(٣) ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: أعمال الخير والعمل بطاعة الله.

حكمة سُليمان عليه السلام.. وموقف أبيه منه!

في قصص القرآن دروسٌ وعبرٌ للشباب والفتيان! الذين يُفكرون ويتدبرون، كما أنها دليل للآباء في تربية الأبناء على إبداء الرأي والمشاركة الجادّة والتدريب على تحمل المسئولية، والحوار المتأدب!

• سيدنا داود وابنه سليمان

ها هو ذا سيدُنا داودُ عليه السلام يحكمُ بين الناس فيما شجرَ بينهم من خلاف ويُصرّف أمورَهم، ويعملُ على إنصافِ كلِّ مظلوم وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه بالعدل!

وكان ابنُه «سليمانُ» حينذاك لم يتجاوز الحادية عشرة بينما أبوه قد بلغ من الكبر عتيًا!

وفكر داودُ عليه السلام فيمن يخلُفه فلم ير غير «سليمان» عليه السلام أهلا لحمل الأمانة! فعلى الرغم من صغره آنذاك إلا أنه ذكي متفتّح، له حضورُه، وله رأيُه المستقلّ مما شجع أباه على دعوته لحضور مجالس الحُكم والقضاء وكثيرًا ما كان يسأله عن رأيه في هذا الحكم أو ذاك، فيُبدي سليمان عليه السلام رأيًا صائبًا مُوفّقًا! وفي هذا تدريب له وتشجيع وبناء لشخصيته!

• نموذج للحكم

وذات يوم جلس النبيُّ داودُ عليه السلام وإلى جانبه ابنه«سليمان» يستعرضان قضايا الخصوم ، ويفصلان فيها بالحق والعدل!

فأتى خصمان : قال أحدهما:

كان لي زرعٌ قد اكتمل نموُّه وآتى ثمره، ودنت قطوفُه حتى صار بهجةً للناظرين، وإذا بغنم خصمي هذا تنتشرُ فيه ليلاً فأهلكته وأبادته ولم تجد من يدفعها عنه، أو يحولُ بينها وبينه!

وسكت صاحبُ الغنم، ولم ينطق بما يدلُّ على صدق خصمه أو ادعائه عليه بالباطل !

وصدر حكمُ داود كالآتي:

على صاحب الغنم أن يُسلّم غنمه لصاحب الزرع جزاء إهماله ومقابل ما أتلفته من الزروع والثمار ولم يعد له حق فيها!!

وسمع الصبيُّ«سليمانُ» عليه السلام هذا الحكم، وقال :غيرُ هذا أرفق ودون هذا أوفق!!

دُهش القومُ وعجبوا من جُرأة الغلام في الحق، وانتظروا منه مزيدًا من التوضيح والتفسير فقال:

تُدفع الغنمُ إلى أهل الحرث، لكي ينتفعوا بألبانها وأصوافها وأولادها!

كما تُسلَّمُ الأرض إلى أصحاب الغنم ليقوموا على زراعتها ورعايتها حتى تعود كما كانت قبل أن ترعاها الغنمُ!

وعندئذ يردّ كلُّ واحدٍ منهما ما أخذه من صاحبه!

فتعودُ الأرضُ إلى صاحبها! وتعود الغنمُ إلى صاحبها!

وبهذا تطمئنُّ النفوسُ وتسودُ المحبةُ فهذا أقرب للعدل وأصحُّ في الحكم وأولى في القضاء!

فرح سيدنا داودُ بما صار إليه أمرُ ابنه سليمان وعرف أنه سيكون خيرَ خلفٍ لخير سلف!

ويحرص القرآن الكريم على أن تكون هذه القصة ملهمة للآباء والأبناء فيقول ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ [1] إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ [2] وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء٧٨:٧٩].

فيأيها الأبناء، إن أمامكم مستقبلاً ينتظركم فأعدوا أنفسكم له! ويأيها الآباء، إن أبناءكم أمانة في أعناقكم فصونوهم!

وإن أردت مزيدًا من حُكم سليمان فسوف أسوق إليك قصة قريبة من هذه القصة.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت هذه لصاحبتها:

إنما ذهب الذئب بابنك!

وقالت الأخرى :إنما ذهب بابنك!

فتحاكما فقال «أئتوني بالسكين أشقه بينكما».

فقالت الصغرى : لا، يرحمك الله : هو ابنها!

فقضى به للصغرى(أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما) فانظر وتأمل كيف فكر سليمان عليه السلام وكيف هداه تفكيره إلى قضاء سليم.

إن المستقبل ينتظرك يا ولدي فأرنا تفكيرك!!

---

(١) ﴿ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ ﴾ :حرث الأرض وجائز أن يكون زرعًا وكرمًا ﴿ نَفَشَتۡ ﴾ :دخلت ليلاً فرعته وأفسدته.

(٢) ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَ ﴾ :يعني -عز وجل- القضية في ذلك وذلك أن داود عليه السلام قضى بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: يا نبي الله يدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه والغنم إلى صاحبها.

بقرة بني إسرائيل..

وما ثار حول اختيارها من حوار طويل!

في أكبر سورة من سور القرآن الكريم وردت قصة«بقرة بني إسرائيل» بل وسميت السورةُ هذه «سورة البقرة» مما يدل على تسليط الضوء على طريقة بني إسرائيل في الحوار وتعقيد الأمور وموقفهم من نبيهم الذي كلمه ربُّه وعظمه! حتى نكون على بصيرةٍ من أمرهم بعد أن أصبح العالمُ اليوم كالقرية الواحدة!

وإذا كان «عُلماءُ النحو» يقولون عن «أيّ» :«أيٌّ هكذا خُلقت» فإن «علماء النفس» يقولون: وبنو إسرائيل هكذا خُلقوا!

وبقرة بني إسرائيل ككل البقر ليست مستنسخة مثل «دوللي» ولا كانت نشأتها في الأنابيب!إنها بقرة عادية!

• معلومات عن البقرة:

أمها بقرة.. وأبوها ثور! كانت لعبد صالح، ورجل تقي قد طال عمره، وليس له إلا ولد صغير!

فما اقترب أجلُه تركها ترعى في أرض الله وقال: «اللهم إني استودعتُكها لابني حتى يَكبَر!» وتركها .. وترك ابنه في أمان الله!

• كفى بالله راعيا!

وربنا سبحانه يرعى أبناء الناس الصالحين الطيبين ويُباركُ فيهم، فقد رأيت في «قصة موسى والعبد الصالح» موقف العبدِ الصالحِ

من ذلك الجدار الذي كان يريد أن ينقض فأقامه لأنه كان لطفلين يتيمين ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

فلليتيم عند الله جانب من الرحمة والرعاية!

حتى إذا كَبِر أخذ يرعى بقرةَ أبيه، وترعاه عناية الله ورحمته!

وكان القدرُ يدخر لهذا اليتيم غنىً وثروةً من حيث لا يحتسب، وجرت أحداثٌ أتُّهم فيها أحدُ الأبرياء، بينما القاتل أبناءُ عمِّ القتيل ليرثوا ثروته، ودفعوا الشبهة عنهم بوضعه أمام بيت ذلك البريء! واختلفوا.. وقال الرجلُ البريءُ: كيف أقتلهُ وهو بنيان الله من هدمه هدمه الله! كيف أقتلهُ وقد تعلمنا أن من قتلَ نفسًا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعًا!

• عرض الأمر على سيدنا موسى:

ولم يجدوا أمامهم من يعرضون عليه الأمر إلا سيدنا موسى عليه السلام وطلبوا منه أن يسأل ربه عمن قَتَل؟! وسأل موسى ربّه، وكان الجواب عجيبًا غريبًا بالنسبة لهم! فماذا قال لهم؟

• قال لهم:

اذبحوا بقرةً واضربوا القتيل ببعضها فإنه عند ذلك يحيا بإذن الله ويخبركم باسم قاتله!

• مراجعة بني إسرائيل ولجاجهم في الحوار:

في البدء ظنوا أن سيدنا موسى ﷺ يهزأُ بهم ويسخر من عقولهم فكيف ينطقُ القتيلُ حين يُضرب ببعض تلك البقرة! وما درَوا أن الله

القادر يقول للشيء: كن فيكون وأنه يُحيي الموتي، وأنه على كل شيء قدير، وإنما هى الأسباب!

فراجعوه فيما قال لهم، فأجابهم بقوله: أعوذُ بالله أن أكون من الجاهلين!

وعليكم أن تُنَفّذوا ما أمرتكم دون لف أو دوران فهو ليس من عندي إنما هو من عند الله! فتمادوا في حوارهم ولجاجهم وأخذهم وردِّهم كما يفعلون اليوم في مفاوضاتهم، ولو ذبحوا أي بقرة لانتهى الأمر وحُلّت المشكلة وعُرف القتيل! لكنهم شدّدُوا فشَدَّدَ اللهُ عليهم! وجعل للبقرة علامات أصابتهم بالحيرة وجعلتهم يتخبطون ولا يدرون ما يفعلون.. إنه العنادُ!

قالوا لسيدنا موسى عليه السلام ما هذه البقرة؟ أهى شبيهة بالأبقار التي تعرفها، أم هى من جنس آخر ؟ فبين لهم سيدنا موسى عليه السلام أنها بين المُسنَّة والفتية عوان بين هذه وتلك وعليهم أن ينفذوا الأمر!

ولكنهم عادوا وقالوا لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة:٦٩]. فازدادت حيرتهم وضلّت عقولُهم، وشغلُوا نبيَّهم معهم بأمر كان سهلاً للغاية! وعادوا من جديد يقولون لنبيهم: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٧٠].

وكان الرد: إنها بقرة سلمت من العيوب لا شية فيها غيرُ مُعَدّة لسقى ولا لحرث!

فبحثوا ونقبوا في البلاد وإذا هى بقرة ذلك اليتيم الفقير الذي بارك اللهُ له في بقرته، فاشتروها بمال وفير وذبحوها بعد حيرة وضربوا الميت ببعضها فإذا هو قد دبّت فيه الرّوح وسرت فيه الحياةُ فذكر أسماء القتلة

اللئام من أولاد عمّه وبرَّأ ساحة الرجل الذي اتهموه! وعرف أبناء العمّ أن الجريمة لا تُفيد وأن من استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقب بحرمانه!

وأراك تقول: إن بني إسرائيل هكذا خُلقوا وجُبلوا على المماطلة، وبحكم عادتهم لم يمتثلوا أول الأمر ولم تأت موافقتهُم إلا أخيرًا كما أخبرنا القرآن الكريم في سورة البقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ (١) وَلَا بِكْرٌ ۚ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا (٢) تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ (٣) عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ (٤) تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ (٥) فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ (٦) كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة٦٧:٧٣].

وأراك تقول :هؤلاء بنو إسرائيل مع نبيهم فكيف بهم معنا نحن العرب؟! إن ما يحدث على الساحة يجيب بوضوح .. اللهم فاشهد!

---

(١) ﴿ فَارِضٌ ﴾ :مسنة هرمة، ﴿ بِكْرٌ ﴾ :صغيرة لم يقربها الفحل، ﴿ عَوَانٌ ﴾ : نصف قد ولدت بطنًا بعد بطن. وهي الوسط بين الصغيرة والكبيرة.

(٢) ﴿ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ :خالص صاف والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض ﴿ تَسُرُّ ﴾ : تعجب.

(٣) ﴿ تَشَٰبَهَ ﴾ : التبس

(٤) ﴿ لَّا ذَلُولٌ ﴾ :يعني لم تذلل بالعمل، ﴿ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ :تقلبها للزرع، ﴿ وَلَا تَسْقِى ﴾ : لم تدر في الساقية ﴿ ٱلْحَرْثَ ﴾ : الزرع ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ :سالمة لا عيب فيها ﴿ لَّا شِيَةَ ﴾ : لا بياض ولا سواد يخالف لونها.

(٥) ﴿ فَٱدَّٰرَأْتُمْ ﴾ : اختلفتهم وتنازعتم ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ : والله معلن ما كنتم تخفونه من قتل القتيل الذي قتلتم.

(٦) ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ فقلنا لقوم موسى: اضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة التي أمرهم الله بذبحها.

قارون وكنوزه.. وقد خسف الله به وبداره الأرض!

• **قارون كما حدثنا عنه القرآن:**

كان قارونُ رجلاً من بني إسرائيل آتاه الله بَسطةً في الرزق ووسّع عليه في المال حتى إن مفاتيح خزائنه، التي امتلأت بالذهب والفضة والجواهر النفيسة لا تستطيع العُصبة أولو القوة حملها لكثرتها!

الناسُ ينظرون إليه وإلى ما هو فيه من غنىً وثراءٍ وزينةٍ وأُبَّهة!

وكل من رآه تمنى أن يرزقه اللهُ مثله ويُعطيه كما أعطاه!

كان إذا خرج في زينته وخُيلائه بهر النفوس وأسر القلوب!

كان فيه فخرٌ وزهوٌ وخُيلاءُ على الناس حين يخرج في موكبه وكأنه يقول من له منكم مثل ما لي وعظمتي؟!

وكان الطيبون من قومه يعظونه وينصحونه ويُحذرونه عاقبة ما هو فيه من خُيلاءَ وزهوٍ على الناس! وكثيرًا ما نصحوه بالابتعاد عن الإفساد في الأرض فإن المعاصي تُزيل النِّعم! نصحوه أن يبتغي فيما آتاه اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا ينسى نصيبه من الدنيا!

قالوا له: إن الله يُحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبدهِ وذلك بالإحسانِ إلى الفقراءِ ومساعدة الضعفاءِ والأخذ بأيديهم كما يظهرُ أثرُ النعمة عليه في تناول المباحات، والبُعد عن المحرمات!

لم يُصغ إلى نصائحهم وأعطاهم أذنًا صماء، وقال :المال الذي عندي هو مالي ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[القصص:٧٨].

بمجهودي وذكائي وأن الله أعطاني إياه لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي . ونسى أن ذهبه وفضته لن يغنيا عنه من الله شيئًا فإن الله قد أهلك من القرون من هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جمعا!!

فما أغنى عنهم جمعُهم ولا ما كانوا يعتزون به من مالٍ ونَسَب!

ولم يُفلتُوا من عقاب الله وعذابه !

• موقف الناس منه :

وذات يوم خرج على قومه في زينته فوقف الناس منه فريقين:

فريق مولع بالدنيا وزُخرفها فقالوا ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[القصص:٧٩]. ووعظهم أهل النظر من أصفياء البشر وقالوا لهم ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص:٨٠].

لعلهم يعرفون الحقيقة ولا يعمون عنها!

• جزاء الله العادل !

ومرت أيام وأزال الله عنه لباس النعمة وأذاقه وبال أمره فخسف به وبداره الأرض ولم يجد له ناصرًا أو معينًا!

وتحكي الآيات القرآنية قصته لتكون عبرةً وعظة لكل المغرورين الذين ينسون ربهم ويكفرون بالنعمة ولا يذكرون الله الذي أنعم عليهم وأجرى الخير على أيديهم ليكونوا مصدر نفع لكلِّ من حولهم فيقول﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ

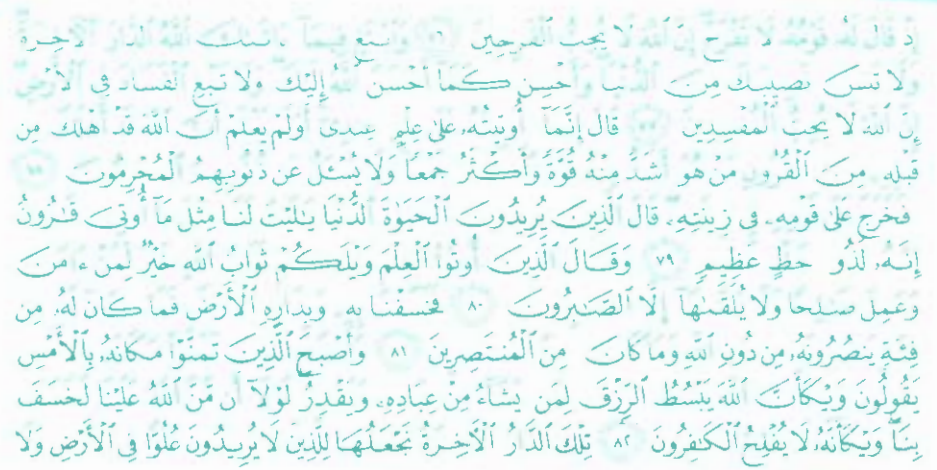
لا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض
إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي ولم يعلم أن الله قد أهلك من
قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون
فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون
إنه لذو حظ عظيم ٧٩ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن ءامن
وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ٨٠ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من
فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ٨١ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس
يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف
بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ٨٢ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا

فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص٧٦:٨٣]. وهكذا صار قارون مثلاً وعبرة لكل من غرته الدنيا وزُخرفها ونسى الله والدار الآخرة!

• والإنسان الذي يرضى عنه ربنا هو:

الذي يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة.

ولكنه لا ينسى نصيبه من الدنيا.

يعمل للآخرة كأنه سيموت غدًا..

ويعمل للدنيا كأنه سيعيش أبدًا..

فإلى كل الذين لا يعبئون بغيرهم ويتطاولون عليهم غرورا وكبرا..

فإذا ما سألتهم عمن ينتمون إليه؟

قالوا في غرور : أو لا تعرف ابن من أنا؟!

فهلا استمعوا إلى قول الشاعر:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا ... يُغنيك محمودهُ عن النسب

إن الفتى من يقول :هانذا ... ليس الفتى من يقول :كان أبي!

وماذا فعلت القيم الزائفة لقارون؟!

المائدة التي سأل نبيّهم عيسى عليه السلام أن ينزلها الله عليهم الحواريون..

• الحواريون ومهمتهم:

لكل نبيٍّ حواريون.. أصحابٌ ملازمون يؤمنون به، وينفذون تعاليمه!

ولكل نبيٍّ معجزاتٌ تساهم في نشر الدعوة وإقبال الكثيرين عليها بعد أن يُجريَ اللهُ على يديه ما يعجزُ البشرُ العاديون عن فعله!

وكان لسيدنا عيسى عليه السلام كمثل الصحابة بالنسبة للنبيِّ محمد ﷺ.

ولقد أثنى عليهم القرآنُ الكريمُ وأخبرنا أنهم قالوا لنبيهم:

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

بل ودعانا -نحن المسلمين- إلى الاقتداء بهم في صدق إيماننا ونُصرة نبينا فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤].

• سؤال عجيب!

ومع إيمانهم برسالة نبيِّهم وشهودهم معجزاتهِ سألوه ذات يومٍ سؤالاً عجيبًا غريبًا ويا له من سؤال جريء!

لقد حدثنا عنه القرآن الكريم فقال ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[المائدة:١١٢]؟!

فأجابهم سيدُنا عيسى قائلاً ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:١١٢].

فما كان منهم إلا أن أخبروه أن هذا الطلب منهم ليس ناتجًا عن شكّ أو تحدٍّ أو خروج على طاعته فهم صادقو الإيمان ويُكنّون له كُلَّ مَحبَّة واحترام!كل ما هنالك أن هذه أمنيةٌ راودت خيالهم وعبَّرُوا عن صدق نيتهم بقولهم ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[المائدة:١١٣].

إن الأكل منها سوف يملأ قلوبهم بالفرحة وهى تحية لهم من الله!

ونزولها عليهم يطمئنهم على صدق إيمانهم وقبول رجائهم!

واستجاب سيدنا عيسى عليه السلام لرغبتهم ودعا ربه بقوله ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[المائدة:١١٤].

واستجاب الله دعاءه كما تقول الآيات ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة:١١٥].

وربنا -سبحانه- إذا وعد أوفى ومن أصدق من الله حديثًا!

ولم يحدثنا القرآن الكريم عما حوته تلك المائدة من أطعمة وأشربة!

المهم أنها كانت معجزة من المعجزات وواحدة من العجائب وربنا سبحانه هو القادر الذي يقول للشيء :كن فيكون!

اقرأ قول الله تعالى في سورة سماها باسم«المائدة» ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ [1] أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ [2] قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة١١١:١١٥].

وبعد ... فقد سميت «سورة البقرة» باسمها لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها .. وسميت «سورة المائدة» باسمها لورود طلب الحواريين من نبيهم عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء.

---

(١) ﴿ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾: قذفت في قلوبهم.

(٢) ﴿ مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: أصل المائدة من ماد فلان القوم ميدا: إذا أطعمهم ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ معناه: نتخذ يوم نزولها عيدا نعظمه ويعظمه من بعدنا.

الطيرُ الأبابيل.. وأصحابُ الفيل

في القرآن الكريم سورة (رقم١٠٥) اسمها «سورة الفيل»!

وأصحاب الفيل لهم قصة.. فمن هم؟ وماذا كان هدفهم؟

لقد حكى الله قصتهم في خمس آيات هى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ[١] ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ[٢] ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ[٣] ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ[٤] ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[٥]﴾[الفيل١:٥].

• منزلة عام الفيل:

ويعتبر«عام الفيل» فاتحة عصر جديد في تاريخ حياة العرب القومية!

---

(١) ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الذين قدموا-في عهد جدك عبد المطلب- من اليمن يريدون تخريب الكعبة وهم جند من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي.

(٢) ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾ يقول: ألم يجعل سعى الحبشة أصحاب الفيل-في تخريب الكعبة في تضليل يعني في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها.

(٣) ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾: وأرسل عليهم ربك طيرا متفرقة يتبع بعضها بعضًا من نواح شتى وهى الأبابيل.

(٤) ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ ترمي أصحاب الفيل بحجارة من طين.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ فجعل الله أصحاب الفيل كزرع أكلته الدواب فراثته فيبس وتفرقت أجزاؤه.

فلا شك أن هذه الحادثة التاريخية العظيمة كانت فاتحة خير على العرب عامة وقريش خاصة حتى أصبحوا يؤرخون بها حوادثهم فيقولون:

حدث هذا عام الفيل أو قبله أو بعده!

ولهذا نرى كتب السيرة تؤرخ به فتقول :

وُلِدَ الرسول صلى الله عليه وسلم عام الفيل!

إلى هذا الحد كان لعام الفيل هذه المنزلة العظيمة وكيف لا وقد مهدت«الطيرُ الأبابيلُ» السبيل لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بُنصرتها ونشر دين توحيدٍ جديدٍ هو دينُ الحنيفية السمحاء!

إنها جندُ الله أقبلت تُدافع عن بيت الله وما يعلم جنود ربك إلا هو!

- **خطورة الموقف وما كان يترتب عليه لو تحقق هدف أبرهة:**

ولك أن تتصور ماذا كان يحدث لو أتيح لجيش أبرهة الذي جاء لهدم الكعبة أن ينتصر ويظفر!

إذن لتغيّر وجهُ التاريخ، ولانتشر الدينُ المسيحيُّ في بلاد العرب، ولانصرف الحُجاجُ والزُّوارُ من مكة إلى صنعاء!

- **موقف الناس من الحرم بعدما حدث لأصحاب الفيل:**

ولما ذاع نبأُ «أصحاب الفيل» بين العرب زاد احترامُهم للحرم وقالوا:

«أهلُ الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم!!

ومازال فضلُ قريشٍ يزدادُ بين القبائل حتى كان «عبد المطلب» الذي اشتهر بحفر زمزم!

وفي عهده خَذَلَ الله «أبرهةَ الأشرم» الذي جاء لهدم الكعبة وصدَّها عن مكة والبيت الحرام!

ونجت مكةُ في أيامه من خطر الأحباش فذاعت شهرتُه وقصدَته القبائلُ من كافة أطراف الجزيرة العربية!

• أبرهة وغزو مكة!

لعلك تذكر«أصحاب الأُخدُود» وما كان من «ذي نُواس» من محاولة نشر «اليهودية» وفرضها على أهل «نجران» الذين آثروا «المسيحية» وأبوا أن يتخلوا عنها إلى غيرها مهما كان من تهديد ووعيد!

ولكن رجلاً فر منهم حتى أتى«قيصر ملك الروم» فاستنصروه على ذي نُواس وجنوده، وأخبره بما كان منهم! فكتب إلى «ملك الحبشة» وأتى الرجل النجاشي بكتاب قيصر وشكا إليه ما حل بقومه من الهلاك والدمار على يد ذي نواس!

وعز على «النجاشي» أن يخبو الدين المسيحيُّ في هذا البلد فبعث بجيش جرار إلى اليمن ولما التقى الجمعان تتابعت الهزائم على «ذي نواس» وأسلمت اليمن قيادها إلى «النجاشي» وأصبحت ولاية تابعة للحبشة وذهب ذو نواس إلى غير رجعة جزاء وفاقا لما كان منه مع أصحاب الأخدود ثم صار «أبرهة الأشرم» واليًا على الحبشة، فأراد أن يُعيد إلى الدين المسيحيِّ شأنه ! وينشره بين العرب!

ولما رأى الناس جميعًا يقصدون «مكة» يحجون إلى بيتها الحرام وكعبتها المقدسة فكر أن يصرف الناس عن مكة وبيتها ويجذب قلوب الناس نحو بلاده.

فبنى «كنيسةً» بصنعاء وزيّنها بما يبهر الأبصار ويجذبُ إليها القلوب وجلب لها من فاخر الأثاث ما جعل الكُلَّ يظنون أنه سيصرف العرب عن البيت العتيق إلى كنيسته!

• الشر بالشر والبادي أظلم:

ولكنه لم يجد من العرب إقبالاً على كنيسته بل ازداد غضبُ العربِ عليه وتسلل واحد منهم إلى كنيسته فأحدث فيها ليلا!

ولما علم «أبرهة» بما حدث أقسم لينتقمن لكنيسته وليُزيلن بيت إبراهيم وإسماعيل! حتى لا تكون هناك كعبة بعد اليوم!

أعدّ جيشًا من الأحباش تتقدمُه الفيلة!

وعسكر بقرب مكة في مكان يسمى«المغمّس» وهناك دارت مناوشات بين الأحباش والعرب!

وكان أبرهة عندما نزل «المغمس» قد بعث رجلاً من الحبشة يقال له «الأسود بن مقصود» على خيل له إلى مكة، فساق إليه أموال أهلها من قريش وغيرهم وأصاب مئتى بعير لعبد المطلب بن هاشم كبير قريش وسيدها وجدِّ النبي ﷺ.

فهمّت قريش وكنانة وهُذَيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ولكنهم رأوا ألا طاقة لهم به!

وعندئذ بعث أبرهة«حناطة الحميري» إلى مكة وقال له :سل عن سيد هذا البلد ثم قل له: إن الملك يقُول لكم إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجةَ لي بدمائكم!

فإن لم يُرد حربي فائتني به!

فلما دخل«حناطةُ» مكة سأل عن «سيد قريش» وشريفها فقيل له هو: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي..

فجاءه وأخبره بما أمره به أبرهة.. فما كان جوابُ عبد المطلب إلا أن قال له:

والله ما نريدُ حربه، وما لنا بذلك من طاقةٍ!

هذا بيتُ الله وبيتُ خليله إبراهيم.

فقال له حناطة: هيا معى إلى الملك، فقد أمرني أن آتيه بك.

فانطلق معه «عبد المطلب» ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فلما تقابل مع تُرجُمان[1] الملك قال له:

«حاجتي إلى الملك أن يرد علىّ مئتى بعير أصابها لي!»

فقال أبرهة لتُرجُمانه : قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتُك! ثم زهدتُ فيك حين كلمتني عن إبلك!

أتكلمني في مئتي بعير قد أصبتُها لك وتتركُ بيتًا هو دينُك ودينُ آبائك قد جئتُ لهدمه وأراك لا تُكَلِّمني فيه!!

• للبيت رب يحميه !

وهنا قال له عبد المطلب: «أما الأبلُ فهى لي وأما البيتُ فله ربٌّ يحميه!!»

---

(١) المترجم

ولقد كان عبدُ المطلب رجلَ سَلام فعرض على أبرهة ثُلُث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت! بيت الله!

فأبى الخبيثُ ورفض دعوة السلام!

ولكن الله الذي سلّط على «ذي نواس» من انتقم منه سوف يُسلط على «أبرهة جندًا من جنوده لحماية بيته!

• عـــودة:

وعاد «عبد المطلب» إلى مكة .. إلى البيت الحرام حانقًا غاضبًا واتجه إلى الكعبة، ومعه جماعة من قريش ودعا الله قائلاً:

يـارب لا أرجـو لهم سِواكا يـارب فامنع منهمُ حماكا
إن عـدوَّ البيت من عاداكا امنعهُم أن يخربوا قُراكا

لقد عجزت وسائلُ «عبد المطلب» عن مقاومة أولئك المعتدين ولم يعد أمامه إلا الالتجاءُ إلى الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف!

إنه وحده هو القادر على إذلال الجبارين وردهم على أعقابهم خاسرين مدحورين!

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح:٤]

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر:٣١].

• الفيل محمود والطير الأبابيل!

أصر أبرهة على دخول مكة وهدم الكعبة فذلك ما جاء من أجله وأقسم عليه!

هيأ فيله الأكبر واسمه«محمود» ووجهه إلى مكة ليهدم الكعبة فأبى إلا الرجوع من حيث أتى!

وضربوا الفيل ليقوم ولكنه أصر على عدم القيام إلى حرم الله!

وجهوه إلى اليمن فإذا به يهرول ويسرع!

ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك!

ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك!

ووجهوه إلى مكة ثانية فأبى إلا نفورًا!!!

وفي اللحظات الحاسمة وعلى باب مكة حرم الله الآمن أرسل الله عليهم «طيرًا أبابيل» جماعات جماعات كالطائرات التي تغير على المواقع في طلعات ترميهم بحجارة من سجّيل (طين متحجر) لا تصيب أحدا إلا هلك!

وكانت الهزيمة.. وكان التفرق .. وكان نصر الله! نعم هُزم جيشُ أبرهة الذي تحصن بالفيل أقوى الحيوانات وأضخمها على يد ذلك الطير الأبابيل أرق الطيور وأضعفها!

ولا تعجب إنها إرادة الله!

يكفي أن يسلط الله عليهم«فَيروسًا» أو «جرثومة» تفتك بهم وإن بطش ربك لشديد!!

لقد جعلهم الله كعصف مأكول.. كحطام التبن ودُقاقه «وتفرقوا أيدي سبأ» وتشتت شملُهم ومن نجا منهم وفرّ.. وهنت قوته.. ولحق بمن مات!

وكان ذلك تمهيدا لنبوة سيدنا محمد ﷺ التي جاءت بعد أربعين سنة من عام الفيل.

حدث هذا قبل الإسلام.. وسيظل نذيرًا لمن أراد الإسلام بسوء يحذرهم وينذرهم ويقول لهم:

كُفُوا أيديكم فإن للإسلام ربًا يحميه!!

مسجدُ الضرار.. وصُدور الأمرَ بهدمه!

قصة «مسجد الضِّرار» قام بها منافقون متطرفون لهذا أفرد القرآن قصتهم من بين سائر المنافقين وخصص لهم حديثًا مستقلاً لما تميزوا به بين طوائف المجتمع من إضرار وكفر وتفريق بين المؤمنين وإرصاد لمن حارب الله ورسوله!

وهم لهذا يُقيمون مسجدًا يجتمعون فيه، ويُخططون ويكيدون للإسلام والمسلمين!

وقد بلغ من تَحَدِّيهم للهِ ورسوله أنهم يدعُون الرسول ﷺ وهو ذاهب إلى «تبوك» لحرب الروم.. يدعونه للصلاة فيه ، ولكي يفتتحه«رسميًا» وحتى يكون مناوئا لمسجد «قُباء» ذلك المسجدُ الذي أُسس على التقوى من أول يوم وشتان بين هذا وذاك!

ووعدهم الرسولُ ﷺ أن ينظر في الأمر حين يعود بمشيئة الله من «تبوك»!

ولكنه حين عاد أمر بهدم«مسجد الضرار» بناءً على أوامر صدرت من اللهِ الذي يعلم بما يبيتونه للإسلام والمسلمين ونزل جبريلُ عليه السلام يحمل إلى النبي ﷺ ما وراء بناء هذا المسجد من أسرار!!

ويحدثه عن هذا الصِّنف المتميز من المنافقين الذين إذا عاهدوا غدرُوا، وإذا خاصموا فجروا وإذا حدّثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا فيقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا (١) وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ (٢) أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا (٣) جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ (٤) ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة١٠٧:١١٠].

فمن أولئك الذين كانوا وراء بناء هذا المسجد؟!

وما سبب نزول هذه الآيات؟

يقول ابن كثير في التفسير : سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له«أبو عامر الراهب» وهو الذي سماه الرسول ﷺ «أبا عامر الفاسق» لما بدر منه!

---

(١) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾: لمسجد الرسول ﷺ ﴿ وَكُفْرًا ﴾ بالله ﴿ وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يبغون التفريق بين جماعتهم. ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ وهو أبو عامر، وكان محاربًا لرسول الله ﷺ .وكان قد انطلق إلى ملك الروم ليأتي بجند من الروم يزعم أن يُخرج النبي ﷺ وأصحابه من المدينة. والأرصاد: الإعداد.

(٢) ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ مسجد رسول الله ﷺ الذي فيه منبره وقبره. وقيل: هو مسجد قباء. ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ﴾: أن ينظفوا مقاعدهم بالماء إذا أتوا الغائط. ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ المتطهرين بالماء.

(٣) ﴿ عَلَىٰ شَفَا ﴾ على حرف (حافة). ﴿ جُرُفٍ هَارٍ ﴾ الجرُف من الآبار ما لم يبن له جانب «هار» أصلها هائر من هار بمعنى: انهار وانهدم.

(٤) ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ﴾ يعني مسجد الضرار ﴿ رِيبَةً ﴾ شكا ونفاقًا. ويحسبون أنهم كانوا ببنائه محسنين ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾: يموتوا.

وكان قد تنصر في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير حيث قرأ علم أهل الكتاب.

فلما قَدِمَ الرسولُ ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمةٌ عاليةٌ، ونصر اللهُ المسلمين يوم بدر، وأظهرهم على عدوِّهم شَرِق اللعين أبو عامر الراهب بريقه[1] وبارز بالعداوة وظاهر بها!

ولم يكتف بهذا بل خرج فارًا إلى كُفار مكة من مشركي قريش وعرض مساعدته لهم في حربهم ضدَّ رسول الله ﷺ!

فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدمُوا عام أُحد فكان من أمر المسلمين ما كان! وامتحنهم الله -عز وجل- وكان النصر للمتقين !

وكان هذا الفاسقُ اللعين قد حفرَ حفائرَ فيما بين الصَّفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب في ذلك اليوم فجرح وجهه الشريف وكسرت رَبَاعِيَّتُه[2] اليُمنى السُّفلى وشُج[3] رأسُه- صلوات الله وسلامه عليه.

وتقدم «أبو عامر الراهب» في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم، واستمالهم إلى نصرِه وموافقته، فلما عرفوا كلامه ، قالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسقُ... يا عدوَّ الله!!

---

(١) أصابته غصة.

(٢) الرّباعية:بفتح الراء السن بين الثنية والناب وهى أربع :ثنتان في الفك الأعلى ومثلهما في الفك الأسفل.

(٣) شق جلد رأسه.

ونالوا منه وسبُّوه! فرجع وهو يقول:

والله لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ!!

ولما لم يجد له نصيرًا فرَّ ولم يعد!

وكان الرسول ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فرارِه وقرأ عليه من القرآن فأبى أن يُسلم وتمرد وأمعن في الأذى!

فدعا عليه الرسول ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا!! فنالته هذه الدعوة! ولكن كيف كان ذلك؟

• التآمر على الإسلام ورسوله!

لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرَقلَ«ملك الروم» يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومَنَّاه وأقام عنده!

ومن هناك كتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والرِّيَب يَعدُهم ويُمنيهم أنه سَيُقدم بجيش يقاتلُ به رسولَ الله ﷺ ويغلبُه ويردُّه عما هو فيه!

وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلاً ومَقَرّا يقدُم عليهم فيه من يَقدُم من عندهِ حاملاً كُتُبه ورسائله إليهم ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم بعد ذلك!

وعندئذ شرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد«قُباء» فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج الرسول ﷺ إلى «تبوك» وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيُصلّي في مسجدهم ، فيحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته!

وذكروا أنهم بَنَوه للضعفاء منهم وأهل العِلّة في الليلة الشاتية عندما سألهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن سبب بنائه وحلفوا بالله إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون!!

فعصمه الله من الصلاة فيه فقال لهم:

«إنّا على سَفَرٍ ولكنْ إذا رجعنا-إن شاء لله-»

فلما قفل صلى الله عليه وسلم راجعًا إلى المدينة المنورة من «تبوك» ولم يبق بينه وبينها إلا يومٌ أو بعضُ يوم نزل جبريل-عليه السلام- بخبر «مسجد الضِّرار» وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين المؤمنين في مسجدهم«قباء» الذي أُسسَ على التقوى من أول يوم!

فبعث الرسول ﷺ إلى المسجد من هَدَمَه قبل مقدمه إلى المدينة!

هذا هو «مسجد الضرار» الذي أمر اللهُ رسولهَ ﷺ ألاّ يقوم فيه، وأن يقوم في المسجد الأول-مسجدِ قباء- الذي أسس على التقوى من أول يوم والذي يضم رجالاً يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين!

هذا المسجد.. مسجد الضرار الذي اتُّخذ أداة للإضرار بالمسلمين على عهد الرسول ﷺ وتحت سمع المسلمين وبصرهم لا يُراد به إلا الإضرارُ بالمسلمين والكفرُ والتفريق وسترُ المتآمرين تحت ستار الدين!

وما أكثر«المؤامرات» في عصرنا وبخاصة تلك المؤتمرات المشبوهة وأولئك الذين يتمسحون بالدين وهم له كارهون!

إن علينا أن نفتح عيوننا لكل من يُحاول النيلَ من ديننا ومقدساتنا، والله غالبٌ على أمرهِ ولكن أكثر الناس لا يعلمون!

تحويل القبلة.. والضجة التي أثارها اليهود والمنافقون المشركون حول هذا التحويل!

كان تحويلُ القبلة من بيتِ المقدسِ إلى الكعبةِ المشرفة امتحانًا للمسلمين!

وكان لليهودِ موقفُهم من هذا التحويل .. وقال المنافقون فيه ما قالوا.

وسَعِدَ المشركون بعودتِه إلى البيت الحرام! وخُيّل إليهم أن ذلك تمهيدٌ للعودة إلى دينهم.. وارتدّ ضِعافُ الإيمان وحسبوه تردُّدا!

• بيان موقف اليهود من تحويل القبلة:

واليهود هم اليهود في كل زمان ومكان، لهم طبيعتهُم وطريقتُهم التي لا يتخلون عنها ولايَستبدلونها بغيرها!

يحَسبون أنهم على شيء، ويضعون أنفَهم في كل شيء!

ويتدخلون فيما لا يعنيهم ، فإذا سمعوا ما لا يُرضيهم قالوا:

عُنصريّة وعَدَاءٌ للسامية وينطبقُ عليهم ذلك المثل العاميّ القائل:«لا يُعجبهم العجب ولا الصِّيامُ في رجب»

فعندما هاجر الرسولُ ﷺ من مكة إلى المدينةِ اتجه إلى «بيت المقدسِ» وظل على ذلك ستةَ عشرَ شهرًا أو سبعةَ عَشَر شهرًا وعندئذ قال اليهود: اتّبع قبلتنا وغدًا يَتّبعُ دينَنا وتكونُ لنا الغلبة!!

وكان الرسولُ ﷺ طوالَ هذه المدة يعجبُه أن تكون قبلتُه جهةَ البيتِ الحرامِ مع ما يُكنه لبيتِ المقدسِ من تقديرٍ واحترام!

فإليه كان مَسراه ومنه كان معراجُه الذي فرضت فيه الصلاة!

ولكن مكةَ أحبُّ بلادِ اللهِ إليه، ولولا أن قومها أخرجوه منها لما خرج!

وفيها «البيتُ الحرام» الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام وجده إسماعيل!

وحقق اللهُ رغبةَ نبيِّه ﷺ ذات يومٍ في أثناء صلاة العصر فنزل عليه قولُه تعالى﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[1] [البقرة:١٤٤].

وإذا بالمسلمين يتحولون في صلاتهم من بيت المقدس إلى البيت الحرام الذي بناه جَدُّنَا إبراهيمُ عليه السلام وابنُه سيدُنا إسماعيلُ.

ليُصبحَ بيتَ المقدس أُولى القبلتين وثالث الحرمين بعد المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي بالمدينة!

والزائر للمدينة المنورة يجد فيها المسجد«ذا القبلتين» شاهدًا على تحويل القبلة!

وهذه المساجد الثلاثة «المسجدُ الحرام والمسجدُ النبويّ وبيتُ المقدس» هى التي تشد إليها الرّحال ويرحل لزيارتها النساء والرجال! لفضل الصلاة فيها على غيرها!

---

(١) ﴿ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ تحوله وتصرفه. ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ نحو السماء. ﴿ فَوَلِّ ﴾ اصرف وحوّل. ﴿ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ﴾ بمعنى نحو وقصد وتلقاء.

أما ما عداها من المساجد فكلها في الفضل سواء!

وأنكر اليهودُ على النبي ﷺ تحويلَ القِبلة إلى المسجدِ الحرام وتملّكهم الحقدُ والغيظُ!

لقد كانوا قبل هذا التحويل يقولون : إنه يخالفُنا ثم يتّبع قبلتنا، ولولانا لم يدرِ أين يستقبل رَبَّه!

فلما تحولت القبلةُ توجّه نفرٌ منهم إلى رسول ﷺ وقالوا له:

«ما ولاّك عن قبلتك التي كنتَ عليها وأنت تزعمُ أنك على مِلّة إبراهيم ودينهِ»؟!

ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نَتّبعك ونُصدقك!!

ولم يكتفوا بها بل أشاعوا على أثر ذلك أنه قد عاد إلى طريقة آبائه واشتاق إلى دينهم ولو ثبت على قبلتنا لكُنّا نرجو أن يكونَ هو صاحبَنا الرسولَ المنتظر المبشَّر به في التوراة!!

لقد كان قصدُهم فتنة الرسول ﷺ وصحبه وإشاعة البلبلة في نفوس ضعاف الإيمان!

• موقف المنافقين والمشركين!

وأطل المنافقون برءوسهم وخرجوا من أوكارهم وانكشف القناعُ عن الوجوهِ الفاجرة وقالوا: ما بالُ محمدٍ لا يَثْبتُ على حالٍ! مرّةً ها هنا، ومرة ها هُنا!!

وقال المشركون من أهل مكة لليهود:

«تحيّر على محمدٍ دينُه، فتوجه بقبلته إليكم ، وعلم أنكم كنتم أهدى منه، ويوشكُ أن يدخلَ في دينكم!!»

وقالوا أيضًا : «أَبَى إلا الرجوعَ إلى موافقتنا ولو ثبت عليه أولا لكان أولى به»!!

وارتد رجال عن الإسلام من ضعاف الإيمان ممن كانوا قد أسلموا واتبعوا رسولَ اللهِ لما أحدثه المنافقون واليهود من تشكيك وتأثير على النفوس!!

وقد أطلق القرآن على هذه الطوائف جميعًا وصف«السفهاء» فقال ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] [البقرة١٤٢:١٤٣].

لقد أثار هذا التحويل ثائرةَ اليهود والمنافقين والمشركين من قريش وغيرهم.

وقد قال الله تعالى ردًا على هذه الأقاويل ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة:١٤٤].

---

(١) ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ ﴾ صرفهم وحولهم.
﴿ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ الوسط في كلام العرب: الخيار ﴿ يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ يقال ذلك لكل تارك أمر وآخذ غيره، إذا انصرف عما كان فيه إلى الذي كان تاركا له فأخذه فيقال: ارتد على عقبه وانقلب. ﴿ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ﴾ قيل: الإيمان ها هنا الصلاة.. ﴿ لَرَءُوفٌ ﴾ ذو رأفة.

وأكد هذا المعنى بقوله عقب الآية السابقة ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة١٤٥:١٤٧].

وهكذا أمر الله بتحويل القبلة ليقضي على بُذورِ الشك والفتنة وألاعيب اليهود والمنافقين ومشركي مكة!

وكان تحويل القبلة امتحانًا نجح فيه بالإيمان من نجح وخسر فيه أعداء الإسلام من السفهاء!

واهتزت الكعبةُ طربا بعودةِ الرسولِ الأمين إليها، فعما قريب سوف يُطهّرها من الأصنام والأوثان ويفتحُ اللهُ له فتحًا مُبينا ويدخلُ الناسُ في دين اللهِ أفواجا لتكون كلمةُ اللهِ هى العُليا وكلمةُ الذين كفروا السّفلى.. وقد كان!

وأراك تقول: وماذا يكون حال السفهاء عندئذ؟

وأقول ما قاله الله تعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ (١) كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٢) ﴾ [المجادلة:٥].

---

(١) أخزاهم الله
(٢) مُذِلّ.

أبو بكر الصديق.. واليهوديّ فنحاص

ذات يوم بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة وعايشوا الأوسَ والخزرجَ واليهودَ!

دخل أبو بكر الصديقُ-رضى الله عنه- مدراسَ اليهود[1] فوجد ناسًا من اليهود قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم يقال له «فنحاص» وكان من علمائهم!

فقال أبو بكر -رضى الله عنه- لفنحاص:

اتق اللهَ وأسلم فوالله إنك لتعلمُ أن محمدًا رسول الله قد جاءكم بالحقّ من عند الله تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة ! فآمن يا فنحاص وصدِّق وأقرضِ اللهَ قرضًا حسنًا يُدخلك الجنة، ويُضاعف لك الثواب.

وهنا قال فنحاص: يا أبا بكر، تزعمُ أن رَبَّنَا يَستقرضُنا[2] أموالنا وما يستقرضُ إلا الفقيرُ من الغنيّ!

فإن كان ما تقولُ حقًا فإن اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء!

ولو كان غنيًا ما استقرضنا أموالنا!

---

(١) الموضع الذي تدرس فيه توراتهم.

(٢) يطلب منا أن نعطيه قرضًا وذلك إشارة إلى الآية الكريمة ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥].وقوله سبحانه ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل:٢٠]. والمراد:أنفقوا في سبيل الله من أموالكم فهو خير يوم القيامة في معادكم.

فغضب أبو بكر الصَّدِّيق ﷺ وضرب وجهَ فِنحاص ضربة شديدة وقال: والذي نفسي بيده لولا العهدُ الذي بيننا وبينك لضربتُ عُنُقَك يا عدوَّ الله!

فذهب «فنحاص» إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا محمدُ: انظر إلى ما صنع بي صاحبُك!

فقال رسولُ الله ﷺ لأبي بكر الصِّديق:

ما الذي حملك على ما صنعت؟!

فقال : يارسول الله:

إن عدو الله قال قولاً عظيمًا!

زعم أن الله فقيرٌ وأنهم أغنياء فغضبتُ لله وضربتُ وجهه!

فجحد ذلك فنحاص وأنكره، فنزلت الآيات ردًا على فِنحاص وتصديقًا لأبي بكر [1] ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران١٨١:١٨٢]. وما ظنك بمن يقتلون أنبياءهم؟ وهل تنتظر منهم خيرًا ؟ اللَّهُمّ لا!!

(١) أسباب النزول للنيسابوري

من حيل اليهود وألاعيبهم!

حياتهم مكر ودهاء.. وأسلوبهم تَحَايُلٌ والتِواء!

ولكن القرآنَ الكريمَ كان يكشفُ حيلهم ويُسلّطُ الضوءَ على ألاعيبهم بين حين وحين!

كان العرب يقولُ بعضُهم لبعض عندَ اللقاء: رَاعِنَا أي انظر إلينا ولا تحرمنا من رعايتك واهتمامك فنحن أحوج ما نكون إليها! وكانوا كثيرًا ما يقولونها للرسول ﷺ.

فلما سمعهم اليهودُ بالمدينة يقولونها للنبي ﷺ أعجبهم ذلك، ووجدوها فرصةً للتعبير عن حِقدِهم على النبي ﷺ وسبِّهم له علانيةً بعد أن كانوا يُخفون ذلك ! ولكن كيف ذلك؟

إن هذه الكلمة عند اليهود ليست «فعلَ أمر» يُطلبُ به مزيدٌ من الرِّعاية والاهتمام والنظر بعين المودّة والمحبّة!

ولكنها اسم.. ووصف لمن تقال له: بالرعونة والحُمق والطيش!

فكانوا يأتون النبي ﷺ فيقولون:

«يا محمدُ راعنا» ويضحكون!

وفطن لذلك رجل من الأنصار وهو «سعد بن عُبادة» رضي الله عنه وكان عارفًا بلغة اليهود!

فقال لهم: يا أعداء الله، عليكم لعنةُ اللهِ!

والذي نفس محمد بيده لئن سمعتُها من رجل منكم لأضربنّ عُنقه!

فقالوا : ألستم تقولونها لنبيكم؟!

فأنزل الله عز وجل﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٠٤].

هؤلاء هم اليهود قديمًا كانوا يتحايلون على الألفاظ للوصول إلى أهدافهم! ولهم تفسيرات تحقق أغراضهم!

أليس منهم من كان يَقلب تحية الإسلام بما فيها من أمن وسلام فيقولون عندما يلتقون بالمسلمين: السَّامُ عليكم!

والسَّامُ هو الموت!

فهل تراهم قد تغيروا عما كانوا عليه؟!!

كل كلمة لها عندهم تفسير يخالف معناها عند غيرهم وهذا سر صعوبة التفاهم معهم! وتفسير كل شيء على هواهم!

إياك وما يعتذر منه!!

- **أضواء على الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:**

كان فتحُ مكةَ فاصلا بين الحقِّ والباطل، حيث تغير بعده مجرى الحياة فدخل الناسُ في دين اللهِ أفواجًا بعد أن خرج المسلمون من مكة مُطاردين ثم عادوا إليها ظافرين منتصرين!

ولم يعد هناك شك في صدقِ رسالةِ محمد ﷺ عند العرب، وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون!

- **العدو الجديد على الحدود:**

ولكن كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر وهى قوة «الرومان» أكبر قوة ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان!

وجاءت الأنباء بأن«الرومان» يُعدون أنفسهم لغزو المسلمين في ديارهم!

وخرج الرسول ﷺ إليهم لمواجهتهم في عُقر دارهم بعد أن أعلن التعبئة العامة!

وتسابق المسلمون إلى التجهز للغزو بينما تخلف ألوان ثلاثة من الناس!

ورجع الجيش الإسلامي من «تبوك» على حدود بلاد «الروم» ظافرًا منتصرًا لم يُصبه أذى وكفى اللهُ المؤمنين القتال.

• وكان الله قويا عزيزا..

عندئذ أقبل«المخَلَّفون» على رسول الله ﷺ وهم الذين تخلفوا ولم يشتركوا مع الجيش الإسلامى في معركته الفاصلة! سواء في ذلك من كان له عذر أو من ليس له عذر. ويقول كُتاب السيرة:

كانت هذه الغزوة اختبارًا للمؤمنين ليميز الله الخبيثَ من الطيب، فقد خرج في هذه الغزوة كل من كان مؤمنًا صادق الإيمان حتى صار التخلفُ علامةً على ضعفِ الإيمان والنفاق!

فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم:

دعُوه فإن يكن فيه خيرٌ فسيُلحقه اللهُ بكم! وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه!

وكان المتخلفون ثلاثة أصناف:

١ - من لهم عُذرٌ ومنعهم عذُرهم!

٢- من ليس لهم عذر وكذبوا على الله ورسوله من المنافقين سواء منهم من استأذن للقعود كذبًا ومن قعد ولم يستأذن

٣- من ليس لهم عذر ولكنهم صدقوا واعترفوا بذنبهم وابتلاهم اللهُ ثم تابَ عليهم وهؤلاء هم الذين يعنينا أمرهم!

• موقف الرسول ﷺ ممن تخلفوا:

ولما عاد الرسول ﷺ إلى المدينة -بسلامة الله- بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين كما هى عادته ثم جلس للناس!

فأما المنافقون وهم بضعة وثمانون رجلاً من الأنصار ومثلهم من الأعراب فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار وأخذوا يحلفون للنبي صلى الله عليه وسلم فقبل منهم علانيهم وبايعهم واستغفر لهم وترك أمرهم إلى الله فإنما هو يحكمُ بالظاهر والله وحده هو الذي يتولى السَّرائر ولا يعلم الغيب إلا الله الذي يعلم السر وأخفى!

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين وهم:

- كعبُ بنُ مالك
- ومرارةُ بن الربيع
- وهلالُ بنُ أمية

فهؤلاء الثلاثة هم الذين اختاروا الصدق وأخبروا الرسول ﷺ بأنه لم يكن لهم عُذرٌ وأنهم كانوا قادرين على الاشتراك في هذه الغزوة لكنهم لم يفعلوا وأعلنوا ندمهم وتوبتهم!

وانتظر الرسول ﷺ أمر الله فيهم وأمر الصحابة ألا يُكَلِّمُوا «هؤلاء الثلاثة » حتى يقضي اللهُ أمرًا كان مفعولا!!

وجرت مقاطعةٌ شديدةٌ لهؤلاءِ الثلاثة، ونَفَرَ الناسُ منهم وتنكرت الأرضُ لهم وضاقت عليهم بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسُهم، وصاروا كالغرباء!

وقضوا «أربعين ليلة» كانت أطول من أربعين عامًا! وهم صابرون ينتظرون عفوَ اللهِ ورِضَاه!

وكانت تجربة قاسية!

وكان امتحانًا عنيفًا لا عهدَ لهم بمثله!

تُرى هل سينْجَحُون في الامتحانِ وينالهُم عفوُ الله؟!

لقد بلغت بهم الشدةُ أقصاها، فقد صَدَرَ الأمرُ الكريم أن يعتزلوا نساءَهم بعد مضي «أربعين ليلة» في جو تلك المقاطعة الأليمة! فأصبحوا في عزلة عن الجميع حتى أزواجهم!

لكنهم صبروا، وانتظروا، وتحملوا حتى كانت الليلة الخمسون وعندئذ نزل جبريل على النبي ﷺ يعلن براءتهم ونجاحَهم في هذه التجربة في قرآن يُتلى علينا، تقول الآيات:

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨].

وفرح المسلمون بعودتهم إلى صفوفهم!

وفرح هؤلاء الثلاثة ببراءتهم وكان هذا اليوم عيدًا لهم!

أما الذين كان لهم عذر، فقد قال الله فيهم:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١- ٩٢].

وقال فيهم رسول الله ﷺ:

«إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم العذر!

قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة.

قال: وهم بالمدينة!».

أما الذين اعتذروا ولا عذر لهم، فقد قال الله فيهم لنبيه:

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٣- ٩٦].

وكثيرًا ما نعتذر دون أن يكون لنا عذر، والله أعلم بحالنا، وقد قالت العرب:

«إياك وما يعتذر منه» حتى تغلق بابًا واسعًا من أبواب الكذب!!

مُحتويات الكتاب

مقدمة المؤلف	٣
قابيل وهابيل وبوادر العِداء بين الإخوة!	٥
أصحاب السبت وما حل بهم من عذاب بئيس	٩
أصحاب الكهف والرقيم وتضحيتهم في سبيل الحق والواجب	١٢
موسى - عليه السلام- والعبد الصالح	١٨
ذو القرنين ورحلات الخير في الشرق والغرب	٢٧
سد مأرب الذي دمرته السيول وسر تدميره!	٣٢
أصحاب الأخدود والنار ذات الوقود!	٣٦
أصحاب الجنة وما حَلّ بها وهم نائمون!	٤١
صاحب الجنتين ونظرة التعالى في حواره مع صاحبه الفقير	٤٨
حكمة سليمان وموقف أبيه داود منه عليهما السلام	٥٤
بقرة بني إسرائيل وما دار حول اختيارها من حوار طويل	٥٧
قارون وكنوزه وقد خسف الله به وبداره الأرض	٦١
المائدة التي سأل الحواريون نبيهم عيسى عليه السلام أن ينزلها الله عليهم.	٦٤
الطيرُ الأبابيلُ وأصحاب الفيل	٦٧
مسجدُ الضِّرار وصدور الأمر بهدمه	٧٥
تحويل القبلة والضجة التي أثيرت عند تحويلها	٨٠
أبو بكر الصديق واليهودي فنحاص	٨٥
من حيل اليهود وألاعيبهم	٨٧
إياك وما يعتذر منه	٨٩